روايات غادة

كاجي رايفز

عروس للقبطان

www.elromancia.com

مرمورية

دار العلم للجميع
بيروت - لبنان

غادة

عروس للقبطان

المؤلفة: كاي دايفز

في بعدها عن المدينة، ونشأتها اليتيمة، لم تكن تينا تعرف ما هو الحب الحقيقي. لكن حين أدركته كانت تعرف أن رالف الذي تعلقت به ليس من بيئتها. مع ذلك رضيت أن تكون له، وبأي ثمن.

الفوارق بينهما كانت تشكل العائق، اضافة إلى أنه لم يعترف لها يوماً بالحب. وفي هروبها منه، تصورت أنها لن تعود إليه مطلقاً.

ما هي ردة فعله لابتعادها عنه؟

وماذا فعلت به أيامه معها؟

وكيل التوزيع الوحيد في الكويت
الظهيني للنشر والتوزيع
تلفون ٢٧٢٧٨٩٩

- ١ -

موجة بحر

كانت الشمس قد بدأت الصعود فوق الأفق، حين توجهت الفتاة الطويلة الرمادية العينين لتستحم في البحيرة الضحلة المتصلة بالبحر، وجسدها النحيل ملفوف بقطعة قماش زرقاء اللون مخططة بالأبيض من القطن.

لم تكن تذكر أنها تعلمت السباحة، بقدر ما تتذكر أنها تعلمت كيف تمشي.. دائماً، كان البحر ملعبها، ومنذ الطفولة الأولى تعلمت كيف تحذر من أخطاره كأمر واقع، كما يتعلم طفل المدينة كيف يقطع الشارع المليء بالسيارات.

الماء كانت دافئة وهي تتقدم فيها لتصل إلى خصرها، قبل أن تختفي تحت سطحها وتسبح أمتاراً بعيدة تحتها لتخرج

ورأسها مرفوع كما ترفعه الفقمة، وخصلات طويلة من الشعر الفضي ملتصقة بكتفين ناعمين كان لهما، في ضوء النهار الزهري الطالع، لون النحاس ولمعانه.

مع أن الفتاة بالنسبة لأهل الجزيرة كانت معروفة باسم «سي وايف» أي موجة البحر، إلا أن اسمها الحقيقي كان تينا ايزابيلا تايلور... والدها كان ضابطاً في البحرية التجارية الأميركية، مات من التهاب صدري بعد بضعة أشهر من وفاة زوجته... طفلتهما، التي كان عمرها ثمانية أشهر، تبناها بطريقة غير رسمية مواطن لوالديها اسمه دوغلاس رينولدز، الذي كان، ولسنوات طويلة سيد سفينة تجارية قديمة لا تزال صالحة للإيجار، كان يتنقل بها وبالبضائع التي تحملها ما بين بور توبرنس في هايتي وبين كافة جزر الكاريبي.. واعتنت فيها صديقة لدوغلاس، كانت ابنة رجل فرنسي تدعى جاكي.

بعد هذا اعتزل دوغي من البحرية التجارية، وصرف مدخراته لشراء مركب شراعي تجاري، وكان يومها في الستين وجاكي أصغر منه بعشر سنوات. لكن بضعفي وزنه، ولم تكن تلك الفتاة التي استهوته منذ زمن طويل. لكن مع أنها فقدت جمال جسدها، إلا أنها كانت طباخة ماهرة، مرحة دائماً، وعاش الثلاثة يؤلفون عائلة قانعة.

فجأة أخذت جاكي تفقد لحمها، وتبدو مريضة.. حين

أخذها دوغي إلى الطبيب، قيل له أن لا شيء ينفع.. ستعيش فقط ما بين الثلاثة أشهر والسنة.

لسنوات طوال كانت جاكي تبدي الرغبة في العودة إلى ما حيث ولدت، حين عرف دوغي بقرب وفاتها أخذها إلى هناك وفي نيته العودة، واستكمال رحلاته التجارية، لكن موتها هناك تركه غير قادر على تحمل روتين عمله التجاري. فقرر السفر من هايتي جنوباً إلى البحر الكاريبي، حيث حط رحاله في أرخبيل من الجزر النائية واستقر في أحد جزرها، التي لا اسم لها تقريباً. وفي عيد ميلاده الثامن والستين، باع المركب الشراعي.

بعد بيعه المركب، اشترى لها دوغي ماكنة خياطة، وتعلمت معها أن تصنع الثياب.. مثلها مثل بقية نساء الجزيرة كانت تحضر على الأقل ثوباً جديداً في كل مرة يعود التاجر الذي اشترى المركب ويجيء معه بالقماش القطني البراق.

أقرب صديقاتها كانت فتاة في مثل عمرها تدعى آماليا، ومن وقت لآخر كانت تينا تنضم لعائلة اماليا حين يذهبون في القارب لحصاد لب جوز الهند في الجزر الصغيرة التي تحد البحيرة البحرية البالغة حوالى الثلاثين كيلومتراً في العرض.

موت جاكي، كان أول تجربة لتينا مع القلق.. تجربتها الثانية كانت حين وصل السيد والسيدة بارتلت للسكن في أحد

الجزر المجاورة كمبشرين لطائفة دينية غريبة متزمتة. أول مرة اقترحت فيها السيدة بارتلت أن عليها ترك دوغي والعيش معهما، ذهلت تينا للطلب. وقالت لها المرأة الرقيقة الشفتين:

ـ أنتِ أميركية الجنسية، ولا يناسبك العيش كفتاة محلية.

ـ ولِمَ لا..؟ أنا واحدة منهن.

ـ لقد ولدت هنا، وعبر سوء حظ والديك اضطررت للعيش هنا، لكن هذا لا يجعلك من أهل البلاد. وأنا واثقة أن أبواك سيحزنان لو عرفا بما أصبحت عليه.

ـ لا اذكر والداي الأصيلان. لكنني اعتقد أنهما سيرتاحا لحسن حظي.. فلولا دوغي وجاكي، لعشت في ميتم.

احياناً، حين كانت تصر السيدة بارتلت، ان نمط حياتها لا يتناسب مع فتاة بيضاء كانت تينا تتهرب منها بالقول:

ـ ولماذا؟ أنا سعيدة تماماً.

فكانت زوجة المبشر تقول:

ـ السعادة نتاج الحياة تينا، ولا يجب أن تكون الهدف..

السعادة الحقيقية تأتي من ضبط النفس وخدمة الآخرين. والانغماس في اللهو، والتمتع غير المسؤول بالملذات هو أكثر مصادر السعادة زوالاً.. اؤكد لك.

لا بد، كما فكرت تينا، أن متزمتة مثل السيدة بارتلت هي التي منعت النساء المحليات من ارتداء ازيائهن المعروفة

المكشوفة، وارتداء اللباس القطني الذي لا شكل له.. وقال لها دوغي بخبث:

ـ ليست مصلحتك التي تهم هذه الحرباء يا فتاتي. بل مصلحتها هي.. إنها تريدك أن تخدميها.. واحذري هناك معنى لوجهة نظرها.. لا يمكنك البقاء هنا إلى الأبد فالشاب أو الشابة يجب أن يريا شيئاً من العالم قبل أن يقررا أي من اجزاءه يناسبه. ومن المؤسف أن لا أقرباء لي في اميركا استطيع ارسالك لهم ليعتنوا بك ولو لسنة بينما تشققين نفسك، مع انني لا اعرف من اين ازودك بالمال.

وضحك...

بمرور الوقت كانت تينا تزداد قلقاً حول ما قد يحدث حين ينتهي المال الذي باع به السفينة الشراعية.. صحيح انها تستطيع العيش دون قهوة أو حليب مجفف، واشياء اخرى مختلفة، وتستطيع الاكتفاء بالطعام والشراب الذي تقدمه لها براعتها في صيد السمك بالرمح وتسلق شجرة جوز هند أو أناناس، مثلها مثل الكثير من المحليين امثالها. لكنها تعلم أن دوغي سيكون بائساً دون دخانه، هذا عدا ذكر السكر والأرز والزبدة.

مصدر رزق أهل الجزيرة كان لب جوز الهند، واللحم المجفف لجوز الهند الذي يدعونه «نفوراس» والذي يجمعونه

من جوز الهند المتساقط على الأرض.. بساطة عيشهم جعلت من الصعب على الغرباء العيش بينهم إلا إذا كان لهم دخل خاص غير دخلهم. نساء الجزيرة لا يحتجن إلى المساعدة المنزلية، ولا إلى رعاية الأطفال، ولم تستطع تينا أن تفكر بطريقة لجني المال، حين ينتهي ما معهما.

لكن قلقها على دوغي، انتهى فجأة بموته.. فقد انهار وهو يسير في القرية، وكان ميتاً حين وصل إليه الناس لمساعدته. وهكذا أصبحت الآن وحيدة تماماً في الدنيا، الأمر الذي ما كان يقلقها لولا وجود المبشر بارتلت وزوجته اللذان ما أن وصل الخبر إليهما حتى بدءا يسببان لها المتاعب. وإذا لم يستطيعا اقناعها بالسكن معهما لتلازم السيدة ملازمة الكلب لصاحبه، فسيرهقها زعيم جزيرتها ليدفعها إلى هذا.

إذن.. بطريقة ما يجب أن تهرب، لكن عدم وجود المال معها لتدفع اجرة نقلها حتى بورتوبرنس في هايتي أو إلى جامايكا أو بورتوريكو، على متن المركب الشراعي، الذي سيصل بعد اسبوعين، جعلها تخاف من أن لا يقبل القبطان بنقلها، أو أن يقبل بشروط قد لا ترضى بها.

خلال حمامها الصباحي في البحيرة، تمكنت تينا من نسيان مشاكلها لفترة قصيرة.. لكن ما ان انتهت من السباحة حتى عادت إلى التفكير بتلك المشاكل بحدة أكثر من قبل. فقد مرّ

حتى الآن أحد عشر يوماً منذ جنازة دوغلاس. واثنا عشر يوماً من الحزن والقلق، دون أن تتوصل إلى حل.

بعد الظهر، كانت تجلس على شرفة المنزل التنكي السقف الذي كان منزلاً لها منذ بيع المركب.. رفعت رأسها لترى من بعيد شراع مركب أبيض يتسلل عبر الفرجة في الصخور التي تحرس البحيرة. وصوله، خاصة انه غير معروف، كان كافياً لإثارة الاهتمام بين أهل الجزيرة، الذين تجمع معظمهم لرؤية المركب ترمي بمرساتها.

المركب الشراعي هذا، كان كبيراً لما يكفي لاقامة ستة أو ثمانية ركاب. لكن يبدو أن ليس فيها سوى رجلان، كلاهما طويل القامة عريض المنكبين، قوي العضلات، كانت تتمدد وتتقلص تحت بشرة بنيّة وهما يتحركان على السطح، بتفحصهما، وجدت تينا ان احدهما كان بُني اللون بطبيعته، بينما الآخر، مثلها، اكتسب لونه البرونزي من الشمس.

ملاحظتها هذه ثبتت حين نزل الرجلان إلى الشاطيء واستقبلا بالهدايا من البيض والخبز. لكنها بقيت حيث هي بينما كان المحليون يحيطون بالغريبين، يسألونهما من أين اتيا وإلى أين هما ذاهبان.. وسرعان ما لاحظت أن السكان يشيرون إليها لمن قدرت انه ليس من أهل البلاد وهو يتجه نحوها بسهولة توفرها سيقانه الطويلة.. بدا لها واضحاً انها

محقة، وأنه من أصل ابيض. لكن.. من اين، لا تستطيع التحديد إلى ان قال لها بالانكليزية:

- قيل لي اننا مواطنان، مع ان أبي انكليزي وأمي اميركية اسمي رالف سومرز.. كيف حالك؟

- كيف حالك سيد سومرز أنا تينا تايلور.

اشار إلى الجمع الذي لا زال يحيط برفيقه:

- لكنهم يسمونك «موجة البحر» كما اعتقد؟

- اجل.. انه اسمي المحليّ.

فابتسم:

- وهو اسم مركبنا كذلك. «سي وايف»

كانت ابتسامته في عينيه ووجهه مثلما في فمه. وهذا أمر قال لها دوغي انه نادر بين الغربيين، فالمحليون يبتسمون فقط بعيونهم. وحين يضحكون لا يضحكون بتزمت مثل السيدة تارتلت وزوجها المبشر.

- الن تجلس سيد سومرز؟ هل لي ان اقدم لك شراباً؟ لدي بعض الأناناس إذا رغبت؟

- شكراً لك، جرعة صغيرة ستبلل ريقي وارجو أن تناديني رالف.

قدمت له الأناناس وجلست قبالته.

- كم ستبقى هنا؟

- بضعة أيام، ربما.. ليس لدينا جدول زمني محدد.. اتعيشين هنا مع والديك؟

- كنت.

وشرحت له موقفها، لكن دون ذكر رغبتها الملحة بترك الجزيرة.. سيكون امامها وقت لهذا فيما بعد. انضم اليهما الرجل الآخر، وقدمه رالف لها باسم محلي «بيبي» وسرعان ما توضح لها انهما صديقان منذ زمن بعيد، وان الأميركي ولو انه يبدو فرنسياً اكثر، يعرف الكاريبي وجزره، التي تتجاوز في كل ارخبيل الثلاثة آلاف، واحدة واحدة مأهولة كانت ام غير مأهولة، كما يعرفها صديقه بيبي، الذي كان في نطقه للغة الانكليزية لكنة اميركية.

بعد ربع ساعة من الحديث، كشفت فيها تينا الكثير عن نفسها دون أن تنفي شيئاً، وقف رالف سومرز ليغادر، وقال:

- إذا كنت لوحدك هنا، ربما ترغبين في تناول العشاء معنا.

أصرّ عليها رالف، كانت تقبل منه مثل هذه الدعوة دون تردد، لكن بعضاً من تحذيرات السيدة بارتلت حول ما تتعرض له فتاة وحيدة غير محمية، اثر فيها.. خاصة وان زوجة المبشر حذرتها من صعود مركب، حتى ولو كان معروفاً لها، فهذا ليس مخاطرة فقط بل هو دعوة للمخاطر.

وكأنه قرأ أفكارها. فضحك:

- يمكنك احضار صديق أو صديقة معك إذا كانت فكرة وجودك معنا لوحدك لا تروقك.

شيء ما في تصرفاته دفعها للقول:

- شكراً لك، سأحب أن احضر، وسأجيء معي بصديقة.. ولو لغير هذا السبب. فلو حدث لي شيء لن تفلتا دون عقاب فالناس هنا يعاملونني كواحدة منهم.

- انا واثق من معاملتهم الجيدة لك.. لكنك ستكوني آمنة على متن من اسمه على اسمك ولأجل اسمك. سنأتي لنأخذك عند الغياب.

كانت تينا واماليا تنتظران عند الرصيف الصغير حين وصل بيبي لأخذهما.. كان الريح قد سكن، وأخذت مقدمة المركب تشق الماء الهادىء الذي تتكسر فوقه ألوان المغيب الحمراء واللؤلؤية، والقرمزية والصفراء.

صعدتا إلى السطح وجلستا جنباً إلى جنب على مقعد خشبي عند مؤخرة المركب. اماليا ترتدي فستاناً مزخرفاً بألوان الزهر والأحمر القاتم وتينا في فستان ضيق الياقة بلون اخضر فاتح. وكلا الفتاتين تضعان الزهور في شعرهما.

لدهشة تينا، لاحظت أن الرائحة اللذيذة المتصاعدة من المطبخ الصغير للمركب، لم تكن من صنع بيبي.. رالف هو

من طهى العشاء لهما.. صحيح انها مع دوغلاس، ركبت كثيراً من الأنواع المعروفة للمراكب، لكن «سي وايف» كان أول مركب يجعلها تحس على الفور بالحسد لوسائل راحته ونظافته، وجوّه البيتي. وعرفت على الفور ان هنا توجد حياة ستسعدها.. حياة حرّة.. اكثر تمدناً، وأقل رتابة من حياة الجزيرة. وعرفت كذلك أن أقرب ما يمكن لها أن تتوصل إليه هنا أن تكون واحدة من الطاقم.

طرقت هذا الموضوع بعد العشاء، حين صعد بيبي واماليا إلى السطح، وأخذت هي ومضيفها يشربان القهوة في غرفة القيادة... قالت:

- أريد مغادرة الجزيرة.. لكن المركب الوحيد الذي يصل إلى هنا يجيء كل شهر مرة من هايتي.. وأنا لا أثق بقبطانه. أتأخذني معك؟

- وما الذي يجعلك تظنين أنني أهل للثقة؟

- قبطان ذلك المركب رجل كريه.. وأظنه اذا اتيحت له الفرصة قد يستخدم القوة مع أي فتاة. أنت وبيبي شابان وجميلان. فلماذا تحاولان معي ما قد تحصلان عليه من غيري بسهولة؟

- انت لا تعرفين أين نحن ذاهبان.

- لا اهتم.. طالما تبعداني عن قبضة المبشر وزوجته.

- ومن هما؟

شرحت له واضافت:

- ليس لدي مال أدفعه لك.. لكنني واثقة أنني سأكون مفيدة، سأغسل ثيابكما، وانظف المركب، وربما اطبخ.

- وحين يصل الوقت لنضعك على الشاطيء في مكان ما.. ماذا سيحدث؟ كيف ستعتني بنفسك؟

- لست أدري.. لكنني سأتدبر أمري.. أنا أقارب الثامنة عشرة.. واستطيع العناية بنفسي.

- اتستطيعي؟ أشك في هذا! اظن من الحكمة اكثر أن تقبلي بسنة أو سنتين مع المبشر وزوجته قبل أن تجربي مقدرتك على الحياة لوحدك. فتاة دون أقارب ليعتنوا بها، ما يحصل لها أكثر من مخاطر عادية.

- لكنني لا أطيقهما.. وسأكون بائسة في العيش معهما.

- لن يكون هذا إلى الأبد.. معظمنا يجب أن يمر بالبؤس وهو يكبر.. وفي أميركا تمضين معظم الوقت في الدراسة.

- لكن هنا ليس كأميركا.. ارجوك خذني معك رالف، لن أزعجك. واعدك بهذا.

لكنه هز رأسه بعد تفكير:

- آسف تينا.. لا يمكنني هذا.

كان في صوته نبرة نهائية جعلتها تدرك أن أي جدال آخر

لا جدوى منه.. وكرامتها جعلتها تبتلع خيبة أملها وتغير موضوع الحديث.

بابتسامة، طافت نظرته بها من وجهها حتى خصرها:

- اذن انت في الثامنة عشرة، إلى أي مدى في الثامنة عشرة؟

- عيد ميلادي في تشرين الأول.

فيما بعد وهي تفكر بالسهرة، انها لو أظهرت نفسها، ولو بإشارة بسيطة، انها راغبة، لكان أخذها بين ذراعيه، لكن مع أنها لم تكن راغبة فقد كانت تخاف كذلك أن لا ينتهي الأمر عند حد العناق. وانه بالرغم من اشارته على أنها صغيرة السن، لكانت الأمسية قد انتهت كما انتهت اليه بالنسبة لبيبي وأماليا اللذان كانا على سطح المركب. وهكذا لتلهي نفسها وتلهي رالف التفتت إلى رف كتب في قمرته وقالت:

- إذا كنت ستبقى هنا بضعة أيام، هل استطيع استعارة احد كتبك؟

- خذي قدر ما تشائين. ولا حاجة لإعادتها. فهي كتب قرأتها أكثر من مرة، وابقيها هنا لأمثالك الذين يسعدهم قراءة ما هو جديد لهم.

وهو يودعها، أحست تينا بالثقة بأنه يعرف ما مرّ في ذهنها منذ لحظات، وانه مسرور من جبنها وتزمتها بالمقارنة مع اندفاع

ماليا . . حين اوقف پيپي القارب، توجهت تينا إلى منزلها بينما سار الآخران، يده على كتفيها وذراعها حول خصره، في اتجاه آخر.

احد الأسباب التي ابعدتها عن عادات أهل الجزيرة، كانت الكتب . . دوغلاس كان يملك منها مجموعة كاملة من أعمال الشعراء المشهورين، وبالأخص المتحدرين من أصل اسكتلندي مثله، ومن هذه الكتب استنتجت أن الحب الذي يدوم هو ما لا يكون أساسه الرغبة الجسدية، بل الأساس الفكري والروحي . . . وهكذا بدأت تحلم بحبيب فيه صفات الفروسية، يجيء من الغرب لأجلها.

وقفت إلى النافذة في مؤخرة الكوخ، تنظر عبر الماء إلى الأضواء الذهبية المترجرة على صفحته، وتتساءل ما إذا كان يمكن أن يكون رالف سومرز هو الفارس الذي كانت تنتظر . . لكن لو أنه كان، لما رفض أن يأخذها معه.

انّه ما كان يسميه دوغي بالجوال . . رجل يسعى دوماً إلى أرض جديدة لناظريه . رجل لا يهدأ ولا يقنع في الاستقرار في مكان واحد . . وقد يتمتع بصحبة پيپي لأنهما متساويان في القوة، والاكتفاء الذاتي . . لكنه قد ينظر إلى المرأة كعائق له.

طوال اليوم التالي، أخذت تينا تفكر بما هو مع وما هو ضد أن تتسلل إلى متن «سي وايف» للهرب. كانت تعرف أن

سرعة المركب القصوى، تصل إلى سبعة عقد بحرية، لكن هذا لن يكون إلا مع هبوب الريح المؤاتية، واعتماداً على طقس مناسب قد يكون معدل السفر خمس عقدات. وهذا خلال اثنتا عشرة ساعة، وهي اقصر مدة تستطيع الاختباء فيها، تعني حوالى المائة كيلو متر بحري . . . وهو يساوي مئة وخمسة عشر كيلومتراً برياً. ولكي يعود بها إلى الجزيرة، فهذا يعني أن يخسر أربعاً وعشرين ساعة من الابحار . . لكن، بما أن وقتهما لهما قد لا يهمهما خسارة يوم وليلة.

وافقت في نفسها مع وجهة نظر اماليا التي قالت لها ان رالف بالرغم من ظهوره بمظهر المتسامح ذو الطبيعة الطيبة إلا أنه قد يكون رجلاً خطيراً فيما لو غضب. وبينما كان وجه پيپي يحمل القسمات الطفولية التي يحتفظ بها أهل الجزر عادة حتى سن متقدمة، إلا أنّ وجه رالف مختلف، عظام جمجمته محددة ببشرة برونزية مشدودة، أنفه المعقوف وذقنه المربع يعطيان الانطباع بالعدوانية.

مع انها خافت تحمل عواقب غضبه . . لكن ما البديل؟ لقد مرت سنة تقريباً لم يمر بالجزيرة سفينة عدا المركب التجاري، ومركب المبشر وزوجته، وقد يمر نفس الوقت، حتى أكثر، قبل أن تسنح لها فرصة أخرى.

مساء ذلك اليوم، دعا زعيم الجزيرة الرجلين إلى عشاء

عائلي بدأ بسمك نيء منقوع بماء البحر ثم بماء جوز الهند، تبعه لحم مطبوخ مع ثمرة الخبز والبطاطا الحلوة.. بعدها نخبة مختارة من لحم السمك المطبوخ، وانتهت الوجبة الضخمة بنوع مخصص من الحلوى المحلية المسماة «باو» المصنوعة من الخبز والسكر والنشاء. وحتمياً، تحولت الدعوة إلى حفلة حضرها كل من في الجزيرة.

سرعان ما انهى رالف كلامه مع الزعيم وتقدم إلى تينا ليقول انه ذاهب للتمشي حتى منصة الصيد على الشاطيء:

ـ أتودين الانضمام إليّ؟

أيعني فقط ما قال؟ أم أن هناك دعوة اخرى خفية في طلبه؟

باندفاع طائش، وقفت، وهما يبتعدان عن المحتفلين عرفت أن من ورائهما صديقات وأصدقاء يبتسمون ويهزون رؤوسهم. حتى أن هناك فتيات كن يحسدنها عليه، بالرغم من أن فتيات الجزيرة لا يفضلن الغرباء كثيراً.. أخيراً لاحظ رالف أن مغادرتهما مكان الاحتفال لم يمض دون ملاحظة، فالتفت يقول:

ـ هل يلاقي تمشيك معي معارضة من صديقك؟

كانت تود أن تجيب «لا» لأنها لم يكن لها يوماً صديق.. لكن شيئاً ما جعلها تهز كتفيها بعدم اكتراث وتقول:

ـ لست أرى سبباً للمعارضة.. حين تنتهي صداقة ما.. تنتهي... ويؤسس المرء علاقة صداقة جديدة.

نظر إليها شذراً، مما جعلها تتساءل ما الذي دفعها إلى التلميح أنه كان لها سلسلة من الأصدقاء الشبان.. وقال:

ـ اذن ليس هناك صديق مميز في الوقت الحاضر؟

ـ لو كان هناك، لما اردت المجيء معك وترك الجزيرة.

تحرك طيفاهما امامهما فوق الرمال، ظل رأسها بالكاد يصل ظل كتفيه العريضين.. منصة الصيد التي أشار اليها لم تعد قيد الاستعمال.. حين وصلاها توقعت أن يتجاوزاها، لكنه توقف يقول:

ـ من المؤسف التوقف عن استخدام هذه المنصة، ولاحظت أن معظم الأطفال لم يعد لهم تلك الأسنان الرائعة التي كانت امراً طبيعياً في هذه الجزر.. بل تركوا للسكر اللعين يفعل فعله.

ـ اجل.. كان دوغي يمنعني من أكل السكر والحلوى، فقد كان يعرف انها مضرة بأسنان الناس.. وقال ان من يعيش في البحر من غير المحتمل أن يعاني من ألم سن فاسد.

تمسكت بموضوع الأسنان في محاولة أن تلغي الانطباع المغلوط الذي اعطته له في كلامها السابق.. لكن هذا لم يكن له التأثير المطلوب. فقد استدار رالف إليها، ليظهر ضوء القمر

سخريته من محاولتها المتأخرة لتبديل الجو الرومانسي حولهما. وقال بنعومة هامسة:

- اجل.. فلديك اسنان رائعة... وشفتان جميلتان.

وعرفت مقصده، ووجدت قلبها يضرب بسرعة أكثر مما اعتادت في محاولاتها المرحة مع شبان الجزيرة.. فأغمضت عينيها بينما كانت يداه تطبقان على خصرها.. لكن قبل أن يتاح الوقت لأحاسيسها أن تتغلب على قلقها، كان عناقه قد انتهى، وأبعدها عنه، نظرته الساخرة واضحة أكثر من قبل. وقال لها:

- اجل.. هذا يؤكد لي انطباع الأمس، ويؤكد لي صحة رفض لاصطحابك معنا.. لست أدري كيف تمكن ذلك الشيطان من فعل هذا، لكن الاسكتلندي الحكيم تمكن من حراستك وكأنك الحمل الصغير. وقد لا ترغبي في الاعتراف.. لكنك بريئة طاهرة، بقدر ما هن فتيات الجزيرة عالمات.. فإذا كن يحزن حين يتركن الجزيرة، فماذا سيحل بك؟

لم تجادله بالأمر.. لكن القرار اتخذته وانتهى الأمر.. وستفعل ما فكرت به.. وهذا قد يعني أن تتخلى عن ممتلكات مفيدة مثل ماكنة الخياطة. ولن تتمكن من اخذ سوى ما تستطيع حزمه في صرّة صغيرة، ستلفها بحذر بقطعة من

النايلون لتبقى محتوياتها جافة حين تسبح حتى المركب. صحيح أن ليس من السهل التسلل إلى السطح دون أن يلاحظها أحدهما.. لكنها ستتدبر أمرها.. ربما حين يكون الرجلان منهمكان في استئذان الزعيم بالرحيل. وهذا قد يستغرق بعض الوقت، وهنا تكمن فرحتها.

وهكذا كانت محضّرة للوقت الذي ستمضيه مختبئة في خزانة المؤونة التي بدت لها أطول مرتين مما تبدو في الواقع. لو أن معها مشعلاً لأمضت وقتها في القراءة، لكن دون مشعل ستقنع بالاصغاء للنشاط الدائر فوقها على السطح.

بينما كانت «سي وايف» تناور المياه الضحلة المرجانية الخطرة عند مدخل البحيرة، كانت أصوات المحرك تخفي صوت الرجلين. لكن ما ان خرجت المركب من بين سلسلة الصخور، اختفى صوت المحرك وعلمت أنهم الآن يجرون بقوة الشراع.. ما عدا صوت الماء يهس باصطدامه الناعم على جانبي المركب بدأت تسمع شيئاً من حديثهما.

للساعتين الأوليتين، كان هناك ارتفاع وانخفاض في المركب، مما جعلها شاكرة لواقع أنها تجيد الإبحار، فلولا هذا لدفعها دوار البحر إلى الكشف عن نفسها.. فالحظ وحده يجعل بعض الناس لا يتأثرون بالسفر في البحر.

متعمدة، لم تكن قد أكلت كثيراً خلال الأربع وعشرين

ساعة الأخيرة.. ولم تشرب القهوة حتى بل الماء فقط.. ومن الماء الذي جاءت به معها لم تشرب سوى لتبل ريقها. فالصيام عن الطعام لن يضرها، بينما قضاء مدة طويلة دون ماء في هذا الطقس الحار، قد يسبب لها الجفاف، مع ذلك ابقت تناولها للماء في أقل قدر كي تؤخر حتمية زيارتها للحمام.

وقت الغداء، جلس الرجلان في مقصورة الطعام يتناولان الغداء، وأخذت تتساءل عما يأكلان، وتمنت لو تكون معهما. فقد بدأت تحس بالجوع، وبالاختناق داخل الخزانة.. في البداية تكلما عن أشياء عامة، ثم فوجئت بقول بيبي:

- لو أن الليدي آن حية.. لأعتنت بتلك الفتاة رالف.

- ربما.

- كان يجب أن تأتي بها.. فلن تسبب لنا المتاعب.

- ألن تفعل.. هذا ما يظنه الناس حين يتركون لقطة شاردة أن تتعلق بهم.. ليس من متاعب إلى أن يضطروا للسفر، عندها سيبدأ الازعاج بوجود من يطعمها، أو وضعها في ملجأ للقطط.. وهكذا ستكون تلك الفتاة.. لا يمكنك وضع فتاة في مثل سنها في مكان غريب وتركها.. ولكنت سأشعر بالمسؤولية نحوها. لو أنها أكبر بسنة أو اثنتين، ولها خبرة فتاتك، لكنت أخذتها بكل سرور.. لكن لعب دور الحارس لفتاة ساذجة ليس من طرازي.. وتلك الفتاة يانعة نقية

كالعشب البريّ. والأفضل لها البقاء مع المبشر وزوجته.

- أنت رجل قاسٍ يا رالف.. أما أنا، فكنت أفضل أن تأتي بها.

- لأنك حساس لأية فتاة لها قصة حزينة.. لكنني أحب النساء في مكانهن الصحيح.. وفي أي مكان آخر يكن مجرد اعاقة.

عجرفة كلماته جعلت تينا تتمنى لو تتمكن من جعله يبتلع كلماته. وفي الساعات التالية، أمضت وقتاً طويلاً تتخيل أوضاعاً مختلفة تضعه في موقف ضعيف، وتثقب «بالونه» المنفوخ، لثقته بنفسه. وكانت ليلة طويلة غير مريحة..

خطتها الأصلية أن تبقى داخل الخزانة أطول قدر ممكن كي تنخفض امكانية أن يعيدها رالف إلى الجزيرة. لكنها الآن وقد عرفت أن بيبي متعاطف معها، قررت حال أن ينام رالف، ستكشف عن نفسها، وتطلب مساعدة بيبي. فقد يكون مستعداً لمساعدتها على البقاء مختبئة، إلى أن يصلوا إلى مكان ما، تتسلل فيه إلى الشاطيء دون أن يعرف رالف بوجودها.

لكن، كان هناك خطر في أن يلاحظ بيبي فتح الخزانة ويسمع حركتها فيصيح ليوقظ رالف.. لكن هذا بعيد الاحتمال، فبيبي لكونه من جيل مختلف، لا بد وأنه وُلد مقاتلاً، ورجل ضخم مثله لا يمكن أن يخاف بسهولة.

لكن الذي حدث، انها لحظة استعدادها للخروج، مرّ قرب الخزانة لعمل ما، وحين عاد وجدها تقف في قمرة القيادة، تتنفس الهواء النقي بعمق، وتمدد اطرافها، وما أن شاهدها حتى وضعت اصبعها على فمها، فقال هامساً:

- أين كنت مختبئة بحق الشيطان؟

- في الخزانة.. أرجوك بيبي، لا تغضب. اضطررت لهذا.. كان يجب أن أغادر الجريرة.

- لست غاضباً، لكن رالف سيغضب.. وستكوني محظوظة إذا لم يضربك على مؤخرتك إلى أن لا تعودي قادرة على الجلوس.

- أيجب أن يعلم انني هنا؟ ألا يمكن أن اختبىء في قمرتك، فقط إلى حين نصل إلى مكان استطيع أن أجد فيه وظيفة؟... أوه.. لمَ لا بيبي؟ سي وايف مركبك كما هو مركب رالف، أليس كذلك؟

- اجل، إنها لي بقدر ما هي له. كانت ملكاً لليدي آن، وتركتها لنا معاً.

- ومن هي الليدي آن؟

ابتسم:

- كانت المرأة الوحيدة القادرة على التلاعب برالف باصبعها الصغير.. هناك شيء ما فيك يذكرني بها.. ربما هذا هو

سبب عدم رغبته في اصطحابك، ربما تذكرينه بها أيضاً. فهو لم يتغلب بعد على حزنه على وفاتها بالطريقة التي توفت بها. واعتقد أن الذكرى ستقلقه دائماً.

- وكيف ماتت؟

- غرقت.

احست أنه أيضاً متأثر بعمق للمأساة، فقالت:

- أنا آسفة.

حدق بيبي فوق صفحة الماء اللماعة وقال، كأنما يكلم نفسه:

- ربما كانت هذه أفضل طريقة.

صمت، وتركها تتساءل ما إذا كان موتها حادثة أم متعمد.. طريقة للخلاص من وضع مستحيل.. وهز كتفيه:

- لا.. لن استطيع خداع رالف.. لقد ربينا معاً كشقيقين، تينا الصغيرة. إنه لا يكذب عليّ، ولن أكذب عليه. لكنني سأقف إلى جانبك ضده.. فلربما تمكنا معاً من إقناعه لتغيير رأيه.. أما الآن فاعتقد أنك بحاجة إلى شيء تأكلينه.

- اوه.. اجل.. ارجوك؟ هل نوم رالف خفيف؟ ألن تزعجه أصواتنا؟

- لا.. لكن تغييراً في الريح قد يزعجه. ولا شيء غير ذلك.

انزلي الآن إلى الأسفل، وإلى أن تغتسلي سأكون قد جهزت لك ابريق شاي وشيء تأكلينه.

لم تكن تتذكر تينا أي طعام مرحب به اكثر من اللحم المعلب والبسكويت وفنجان من الشاي الذي تناولته. فيما بعد، اخذها بيبي إلى القمرة الثالثة غير المستخدمة في المركب حيث حضر لها مقعد النوم المعلق. وقال لها:

ـ سأحضر لرالف فطاراً دسماً من بيض ولحم مقلي قبل أن أبلغه بوجود متسللة معنا، ربما سيكون مزاجه أفضل حين يأكل.

ـ أتظنه سيعيدني إلى الجزيرة؟ بعد كل هذه المسافة؟

ـ لست أدري.. قد يفعل، إذا اعتقد أن هذا هو الأفضل لك. وإذا كان هذا قراره فلن تستطيعي ايقافه عن تنفيذه.

وهي مستلقية على المقعد المعلق، تهدهدها الأمواج تحت السي وايف، اعادتها الحركة إلى أيام الإبحار مع دوغي. اين يمكن أن تكون الآن لو لم يبع دوغي المركب؟ من الصعب التخمين. لكنها تعرف امراً: لكانت سيدة نفسها، لا أن تكون منتظرة بقلق واهتياج قراراً من رجل، ينام غير بعيد عنها، غير عالم حتى بوجودها.

هل سيغضب منها لخداعه؟

مرت رجفة في أوصالها.. بطريقة ما لديها احساس قلق

بأنها ستفعل مواجهة عاصفة ثلجية هادرة بدلاً من مواجهة غضب رالف سومرز.

* * *

- ٢ -

الهاربة

استفاقت من رقاد عميق تبع فترة من التوتر، على يد غير لطيفة تهز كتفها.

للحظات بعد فتح عينيها لم تكن تذكر أين هي. ما عدا انها نائمة على جنبها تنظر إلى ساقين لبنطلون جينز بالي اللون، مقصوص عند الركبتين يلف خصره حزام من الجلد البني الكالح الألوان.. ببطء تجولت نظرتها التي لا زالت مشوشة بالنوم، إلى فوق لتمر بصدر نحاسي عاري إلى فم مشدود وعينين معاديتين لوجه رالف سومرز. وقالت متلعثمة:

- اوه.. صبا.. صباح الخير.

- كان صباحاً جيداً إلى أن أخبرني أن لدينا هاربة هنا.

بماذا تبررين نفسك؟

- فقط.. أن.. أن المواقف اليائسة، تستدعي وسائل يائسة.

- ظننت أن بامكانك اجباري.. أليس كذلك؟

- لا.. ابداً.. لكنني فكرت.. انني.. أملت أن تعيد التفكير بقرارك لو اثبت لك انني قادرة على التغلب على أي مصاعب. وإذا رغبت في معاقبتي.. أعدني إلى الخزانة.. لست أمانع. افعل أي شيء لأهرب من عائلة بارتلت، وأكون مستقلة.

وضع يداه في جيبيه الخلفيتين.. ووقف يتفحصها بنظرة وجدتها قاسية..! أخيراً سألها:

الديك جواز سفر؟

هزت رأسها نفياً.. فتابع:

- لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان دون جواز سفر.

- اذن يجب أن أحصل على جواز.. لدي شهادة ميلادي وشهادة زواج والداي.. وجواز سفر دوغي.

- ارتدي ثيابك وجيئي لي بالأوراق كلها.

- ايعني هذا أنك ستأخذنني معكما.

- لا.. هذا يعني أنني سأفكر بالأمر.. فنحن سنبقى حيث نحن الآن لما تبقى من النهار.

حين تركها، طوحت قدميها إلى السطح ورمت الغطاء عنها.. نافذة القمرة لم تظهر لها سوى البحر المترامي الأطراف. لكن صوت الموج اعلمها أنهم قرب برزخ صخري.

من باب الحمام، القريب من مقدمة المركب، إلى الجانب الأيمن، شاهدت موجات المحيط الهائلة تتكسر بيضاء فوق العشب المرجانية، ومن خلفها رؤوس بعض اشجار النخيل المروحي الأغصان.

بعد أن غسلت وجهها ويديها عادت إلى قمرتها لتمشط شعرها وترتدي ثوباً محلياً أحمر اللون. ولأول مرة صدمها أن القمرة لها جو انثوي. ولا بد أنها لمالكة المركب السابقة المرأة المسماة الليدي آن. وأنها على طراز قديم يعود إلى أوائل القرن.. وعند السقف يتدلى رفان يحتويان على ما يقارب الخمسة عشر كتاباً بعضها انكليزي والآخر فرنسي. فوق الرفين، وراء ستارة جانبية، صورة مكبرة لرالف وبيبي يقفان وذراعيهما يلتفان كل على كتف الآخر، يضحكان وكأنهما في حفلة ما.

لادراكها أن رالف لا بد ينتظرها لتقدم له الوثائق، لم تتأخر تينا لتتفحص الصورة أكثر، فانهت ترتيب المقعد وأسرعت إلى السطح حيث وجدته يدرس الخريطة في قمرة القيادة وأشار لها أن تجلس:

أخيراً وضع الخريطة بعيداً، ومد يده ليأخذ الأوراق منها.

راقبته وهو يتفحص الأوراق، متساءلة عما في تفكيره.. وهو يدرسها، نزل بيبي، فنظرت إليه متساءلة، أجابها عليها بهزة كتفين يعني بها أن لا فكرة لديه عما يشغل بال رالف.

اعاد رالف الوثائق إليها دون تعليق، ولكانت تحس بالتشجيع لو أنه احتفظ بها.. لكنه قال:

ـ من الأفضل أن تحضري لنفسك ما تأكلينه. بعد نصف ساعة سننزل إلى اليابسة.

النزول فوق جزيرة لا ممر لها سوى من فوق الأرخبيل الصخري لم يكن تجربة جديدة لتينا. مع أن زمناً طويلاً مر عليها لتجلس في قارب تنتظر الموج ليحمل القارب بأمان فوق الحاجز المرجاني الذي يمكن له أن يمزق جسد إنسان لو قاده سوء حظه للاصطدام به.

لم يكن هناك من يعيش في الجزيرة، مما بدا دعم لفكرة تملكتها بأن هذه المحاولة الخطرة ما هي إلا امتحان لأعصابها.. وتسلق بيبي شجرة جوز الهند واقتطف ثلاثة جوزات من نوع «المامانجو»، الماء فيها ليس حلواً مثل النوع المسمى «كيكهو»، بل انه مر قليلاً مما يجعله كابحاً جيداً للعطش على من يعمل، ثم توجه بيبي ليصطاد السمك بالرمح.. وسألها رالف:

ـ ماذا تفعلين لو تركناك هنا؟

ردت برباطة جأش:

ـ لن يخيفني هذا.. اعرف كيف أتسلق شجرة جوز الهند وكيف اصطاد السمك بالرمح. وفي النهاية ستمر مركب اخرى وترى ثوبي مرفوعاً كإشارة لطلب النجدة. عندها سأبلغ عنك السلطات وستقضي وقتاً طويلاً في السجن.

التمعت عيناه بالمرح:

ـ الن تخافي أن تكوني لوحدك ليلاً؟

ـ بلى.. لكن ليس لأسباب جدية.. لا يوجد شيء هنا قد يؤذيني.

ـ نفس الشيء ينطبق على المكان الذي ترغبين في تركه بإلحاح، لتذهبي إلى أماكن مليئة بالأخطار.

ـ ربما.. لكن تعيش فيها فتيات يتدبرن أمرهن فلماذا لا أستطيع أنا.. أفضل لو تتركني هنا على أن تعيدني.. في الواقع، قد يكون هذا حل جيد، فأنت لا تريديني على متن مركبك ولا تريد أن تزعج نفسك بالعودة.. اتركني هنا، فلا مانع لدي، أؤكد لك!

رد بحدة:

ـ لا تكوني فتاة سخيفة.. ماذا لو مرضت ثم مت؟ سأتهم بجريمة القتل، إذا لم يكن بأسوأ.

ـ لن يعرف أحد.

ـ لا بد أنك اخبرت صديقتك اماليا، وهي بدورها ستبلغ الأمر للزعيم الذي سيبلغ السلطات.

ـ لم أفكر بهذا.

ـ ولا فكرتي بنواحٍ كثيرة من هذا الموقف.

وتركها ليستكشف بقية الجزيرة.

في العودة إلى «سي وايف» قال لها رالف:

ـ حسناً.. فلنرى ما تستطيعي فعله في المطبخ بطبخ هذا السمك الذي اصطاده بيبي.. هل استخدمت طباخ غاز من قبل؟

هزت رأسها نفياً.. فقال بيبي:

ـ سأعلمك، وأنظف لك السمك.

صاح رالف آمراً:

ـ علمها كيف تستخدم الطبّاخ.. لكن لا تنظف السمك. فلا مكان للركاب هنا.

لحقت تينا بيبي إلى المطبخ، وقالت بتعاسة:

ـ لا يزال غاضباً.. أليس كذلك؟

ـ ليس مسروراً على الأقل. هل أنت طباخة جيدة تينا؟

ـ لم يتذمر دوغي يوماً.

ـ رالف يحب الطعام اللذيذ، فإذا طبخت جيداً للغداء فلربما تكسبين عطفه.

ودلها اين تجد البهارات التي قد تحتاجها، وعلمها كيف تشعل النار، ثم تركها تقوم بما تستطيع.. ولبراعتها، كانت الأسماك، التي شوت بعضها وقلت الأخرى، مثيرة للشهية وكأنها محضرة بالطريقة المعروفة في الجزيرة فوق نار الموقد الخشبي. ولم ترَ أي سبب يجعل رالف ينتقدها.. لكنه بالرغم من تناولها باستمتاع ظاهر، إلا أنه لم يظهر أي استحسان أو أنه أيد اطراء پيپي.

بعد هذا، تمدد پيپي على فراش على السطح ونام في الشمس. بينما أحضر رالف كرسياً طويلاً إلى المقدمة وجلس فيه يقرأ. فنظفت تينا الطاولة وغسلت الصحون ثم نظفت الطباخ وآنية الطبخ، تمتعت بعملها وهي تهاجم لطخة شحم في المقلاة، فأخذت تدندن لنفسها.. وأحست بأن هناك من يراقبها، فاستدارت لتجد رالف يقف خلفها.. لكنه لم يقل شيئاً بل تابع سيره إلى قمرته، وتركها تتساءل ما إذا كان تمتعها، وخلو بالها من الهموم، قد يحتسب ضدها.

بعد ذلك غسلت المناشف، وثوبها الأحمر الذي نامت فيه في الخزانة ونشرتهم ليجفوا، ثم توجهت إلى غرفتها كي تتبعد عن طريق الرجلين، أملاً في أن لا يكُون لوجودها أي تأثير عليهما.

أخذت من على الرف كتاباً لكاتب اسكتلندي طالما كان

يذكره دوغي لها متمنياً أن تحفر له على قبره أبيات شعر من شعره تقول:

تحت السماء ذات النجوم الساطعة
احفر لي قبري ودعني هاجعة
سأموت فيه بسعادة كما كنت في الحياة قانعة
حيث سأستلقي وفي يدي وصيتي للأجيال
هذا هو الشعر الذي عشقته بجنون
وهنا أرقد تحته حيث تمنيت أن أكون
موطني الشراع.. موطني البحر الحنون
وموطن الصياد دائماً في الخيال

ومع انها حاولت التركيز على القصة الشعرية إلا وجدت نفسها تفكر بالمؤلف الذي ابتعد عن موطنه بسبب المرض ومات في بلاد غريبة.. وبدوغلاس، ثم بالليدي آن، التي حتى يوم مأساتها كانت المرأة الوحيدة التي عرفت كيف تدير رالف سومرز.

مضى على وجودها في قمرتها ساعتان حين سمعت اصوات نشاط على السطح فوقها، وعلمت أن الرجلين يحضران الشراع للإقلاع.. فبقيت حيث هي إلى أن احست أن المركب قد استقام وانطلق، لكنها لم تكن تعلم وجهة المركب إلى أن صعدت إلى قمرة القيادة ووجدت پيپي عند الدفة،

فابتسم لها لتعرف أن قلقها قد انتهى.

بعد لحظات نزل رالف من مركز المراقبة فوق قمرة القيادة بخفة مدهشة بالنسبة لرجل ضخم الجثة مثله فصاحت تينا بعاطفة عميقة:

- اوه.. رالف.. اشكرك جداً.

وعانقته، فسمعته يقول بخشونة:

- يجب أن تشكري محاميك هنا، وليس أنا.. وقد أندم لأنني اصغيت إليه.

لكنه اتبع كلامه بإلقاء ذراعيه حولها، مما جعلها تدرك أن ليس دفاع بيبي وحده الذي جعله يغير رأيه. فجأة، وعلى شفا أن تنفجر بالدموع، اجتاحتها موجة مشاعر مختلفة.. فجذبت نفسها من بين ذراعيه وتمتمت:

- آسفة.. نسيت نفسي.

رد متسلياً:

- لا داعي للاعتذار.

- متى تريدان تحضير العشاء؟

- لقد قمت بدورك اليوم في المطبخ.. وسأطبخ الليلة بنفسي.

تلك الأمسية كانت الأسعد بالنسبة لها منذ زمن طويل ولم تسأل إلى أين يتجه بهم المركب.. فماذا يهم هذا بعد؟ بعد

الكبت الذي عانته لزمن طويل أي أرض لها تبدو تغييراً مثيراً.

استيقظت في اليوم التالي وهي تحس أنها تغيرت، ليس التغيير فقط في ظروفها، بل في قلبها.. لقد وقعت في حب رالف سومرز.

خلال الليل كان المركب قد غيّر مساره في اتجاه أوصلهم حوالى نهاية اليوم التالي لوجودها، إلى جزيرة تشبه الجزيرة التي تركتها، لها مدخل كالقناة بين برزخ الصخور.. لكن بالرغم من وجود بعض الأبنية، إلا أن أحداً لا يعيش فيها.. وقال رالف معلقاً حين عرف أن المكان لهم لوحدهم:

- ربما جذبت اهلها أنوار جزيرة أكبر وملاحيها.

قطف زهرة خبازى حمراء فاتحة، ووضعها خلف أذن تينا، صحيح أن الخرتة ليس لها نبرة خاصة إلا أنها اسعدتها أكثر مما لو كانت من أي شخص آخر.

فيما بعد أخذت تفكر بحيرة: لماذا، وبيبي رجل وسيم جداً، ليس له أي أهمية لها، ما عدا أنه ساعدها، لكن كل كلمة أو حركة من رالف تثير فيها اقصى الاهتمام؟ كانت تجاهد ولا تستطيع منع نفسها عن مراقبته وهو يتجول في المركب، أو يغطس في المياه الخضراء العميقة، ويتسلق ثانية إلى السطح وبشرته السمراء تلمع بقطرات الماء المالحة.

خلال الأيام الأربعة التي قضوها في بحيرة الجزيرة غير

المأهولة، عرفت القليل عن الرجلين.. على الأرجح كان يمكن لهما أن يخبراها بما تريد، لكنها لا تحب طرح الأسئلة. متذكرة وصية دوغي أن من الأفضل انتظار أن يتطوع الناس بإعطاء المعلومات. وتذكرت أنه حذرها من تصديق كل ما يقال لها:

- اكبر الكذابين يكون لهم وجه بريء عادة. والرجل الذي يبدو كالنذل، قد يكون من أشرف الرجال. فلا تضعي ثقتك بأحد إلا بعد أن يبرهن عن أهليته للثقة.

ومع أنها كبحت فضولها عنهما، إلا أنهما طرحا أسئلة كثيرة عنها وعن حياتها مع دوغلاس.. وقال رالف:

- اجد صعوبة في التصديق أن لا أقارب لك.. وقد يستاهل الأمر بعض التحقيقات.

- كيف؟

- وثيقة زواج والديك تظهر أنهما تزوجا في بلدة صغيرة من ولاية تينيسي.. ربما تكون مسقط رأس والدتك كذلك تعطي الوثيقة عمرهما يوم الزواج، لذلك نعرف تاريخ ميلادهما... وهناك في كل ولاية مكتب يسجل كل الولادات والوفيات منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن، إضافة للزيجات. وبما ان اسم أمك الأصلي غريب، فمن السهل متابعته، وقد نعرف من هم أهلك ومن كان جداك.

- أتعرف عنوان هذا المكتب؟

- أجل.. لكن لا فائدة من الكتابة لهم.. إذ يجب على الشخص المهتم أن يفتش في الدفاتر بنفسه، أو بواسطة شخص محترف. على كل الأحوال اعرف شخصاً يعيش في «نشغيل» عاصمة الولاية قد يقوم بهذا لنا، سأكتب له، وحين نصل إلى مكان فيه بريد سأرسل الرسالة.

- طيبة منك أن تزعج نفسك.. ولا استطيع منع نفسي من الفضول حول أهلي الأصليين.. مع أن دوغي كان يقول لي أن الكثير من الناس يفضلون أن لا يكون لهم أقارب.

- القدر يختار لك الأقارب، لكنك تختارين الأصدقاء.. هذا مثل معروف جداً.

كانت على وشك سؤاله ما الذي جاء به إلى الكاريبي، لكنه وقف فجأة.. فصمتت. فيما بعد وهي تفكر بالمعلومات التي قالها لها. وتساءلت بالتالي ما إذا كانت طفولته منقسمة بين بلد أبيه أميركا وبلد أمه فرنسا، لأن زواجهما لم ينجح. ولأول مرة فكرة ما إذا كان هو متزوجاً أم لا. وفي الصباح التالي وهم يتناولون الفطار سألته، فرفع نظره عن السمك الذي يأكله وقال:

- لا.. أنا أعزب.. ما الذي دفعك للسؤال؟

ترددت:

- أنت لا تقضي أية ليلة على الشاطيء كما يفعل بيبي.

- هذا ليس لأنني زوج مخلص.. لكنني أفضل أن تكون الفتاة التي أتعاطى معها أكبر سناً وأكثر حنكة لكن مع خبرة أقل.

فيما بعد، وقفت تينا تتطلع إلى صورتها في المرآة في قمرتها، تتمنى لو تعرف كيف تعوض عن نقص الحنكة ونقص الأناقة التي للفتيات اللواتي رأت صورهن في مجلات قديمة كانت في كوخها. منذ وصولها إلى المركب كانت تغير كل يوم من ثوب إلى آخر كي يبقى الثوب نظيفاً، وتحافظ بالتالي على بقية ملابسها. لكنها اليوم أخرجت الفستان الذي ارتدت في أول زيارة لها للمركب مع اماليا، وكوته، ثم جمعت شعرها إلى فوق ووضعت فيه الزهور. ثم ارتدت قطعة الحلي الوحيدة لديها.. كانت قطعة ذهبية كبيرة من العملة المكسيكة القديمة ولأن صور نسر كبير كانت تتوسطها فقد دعاها أهل الجزر بالمال الطائر. استحضرها دوغلاس لجاكي ووضعها في اطار علقه بسلسلة ذهبية، وحين ماتت جاكي اعطتها لتينا. وقال لها بيبي وهي تجتاز الممر إلى حيث كان يطبخ الكركند الصخري للعشاء.

- تبدين جميلة جداً الليلة تينا.

ابتسمت وشكرته.. إلا أنها إنما ترغب باطراء من رالف.

لكنه لم يلاحظ سوى القلادة في جيبها، وسأل ما إذا كانت تعرف من أين أتت. وحين هزت رأسها وأخبرته علق:

- حين كنت طفلاً، كان هناك ثلاثة أماكن أرغب في رؤيتها: المكسيك، الصين، وخليج هرسون.

- وهل زرتها؟

- لا.. الآن وأنا قادر، أفضل أن احتفظ بخيالاتي..

فالصين ليست الآن كما كانت في عهد تيمورلنك، ولا أظن المكسيك تشابه بلاد فيراكروز.. أما خليج هرسون فأظنه مليء بالجليد معظم أيام السنة، ولم يعد مكاناً مليئاً بصيادي الثروة والذهب.. هل حظيت بتعليم رسمي تينا؟

- لا.. لكن دوغي علمني القراءة والكتابة، وعلمني الحساب واشترى لي أطلساً دلني فيه على معظم المدن الرئيسية والأنهار.

رد رالف متعجباً:

- في حقبة يحتاج إليه سكان أوروبا وأميركا إلى آلة حاسبة.. لا يبدو لي تعليمك سيئاً أبداً. لكن لسوء الحظ هذه الأيام على المرء أن يكون لديه شهادات ليحصل على عمل يكسب منه معيشته.

بعد عودتها إلى قمرتها من العشاء، رمت الزهور عن رأسها من النافذة.. وسمعت دقاً على بابها.

- ادخل.

فدخل رالف، لتبدو القمرة فجأة صغيرة.. وقال لها:

- إذا رغبت في استخدام أي قطعة ملابس من الموجودة هنا فلا بأس في هذا. كانت لامرأة أكبر منك سناً بكثير، لكن كان لها جسد نحيل، وبنفس الطول، ولا بد أن تناسبك ملابسها.

فتح أحد أدراج الخزانة الجانبية التي ظنتها فارغة، ولم تحاول النظر إلى ما تحتويه.. فادهشها أن ترى الدرج مليء بالثياب المطوية بعناية. وأخرج رالف فستاناً ابيض حوله دانتيل مطرز وازرار لؤلؤية:

- أيناسبك هذا؟

وضعته على جسدها:

- اجل.. لكن بيبي أخبرني عن.. الليدي آن.. الن تمانع لو عرفت أن غيرها سيرتدي ثيابها؟ ألن يكون مؤلماً لك أن ترى الملابس على شخص غريب؟

- معظمها لم أشاهدها ترتديها. معظم الوقت كانت ترتدي ثوباً محلياً مثلك. على كل لست عاطفياً.. وأحد أهم ما كانت تكرهه هو أي نوع من الهدر. عمت مساء.

بعد خروجه بدأت تتفحص محتويات الخزانة، وجذبتها ألوان الأقمشة وأنواعها.. كل القمصان والتنانير، والثياب الداخلية كانت تظهر أنها مصنوعة بيد تعتبر أكثر من ماهرة،

ومن قماش نوعيته أرقى من أي نوعية شاهدتها تينا من قبل. كل الأزرار كانت غير عادية وساحرة. كذلك كان التطريز الحريري على فساتين النوم والثياب الداخلية. في أحد الأدراج العليا وجدت مناديل حريرية مطرزة بحرف «آ» بالأجنبية، ومناديل للرأس شفافة عرفت أنها من الحرير الأصلي. وكان هناك في أحد الأدراج علب زينة وأدوات تجميل كلها أوروبية ولم تفتح بعد.

علبة مجوهرات فارغة ذكرت تينا أن لديها قطعة حليّ أخرى غير القلادة لها قيمة. كان خاتماً لأبيها تسميه «خاتم الختم» لكنها لم تكن تستطيع ارتداءه لأنه أكبر من أي من أصابعها.. كان مصنوعاً من الذهب ومحفور عليه شعار، قال لها دوغلاس العجوز، أن المقصود منه أن يضغط على السمع السائل.

في اليوم التالي قالت لرالف:

- قلت لك انني لا أستطيع دفع أجرة سفري.. لكنني تذكرت أنني قادرة.. نوعاً ما. أريدك أن تأخذ هذا. فإذا لم تكن تحب الخواتم، بإمكانك بيعه.

وفتحت يدها تعطيه «خاتم الختم».

أخذه يتفحصه، ويتفحص الحفر عليه.. كان شعاراً مؤلفاً من درع مزرّد تحت تاج وسيف قصير مسلول.. ثم دسه في اصبعه الصغير. فقالت:

ـ لقد ناسبك تماماً.

ـ أجل.. لكن كما أشرت.. الخواتم ليست من طرازي.. وفوق مركب قد تكون خطرة.

ـ بعه إذن. لا بد أن له قيمة ما. إنه من الذهب الصرف هذا ما قاله لي دوغي.

ـ أكان له؟

ـ لا.. بل لأبي.

وزن الخاتم في راحة يده:

ـ انه لا يقل عن نصف أونصة.. وبالسعر الحالي للذهب، قيمته لا بأس بها.. وسأساعدك للحصول على ثمن عادل له، لكن ليس لدفع أجرة سفرك معنا. فعما قليل ستحتاجين إلى كل مال تستطيعي الحصول عليه.

في الأيام التي تلت، تعمدت تينا اقفال تفكيرها عن المشاكل التي تلوح أمامها، لتركز فقط على سعادة الحاضر. تسبح، تصطاد السمك، تغطس بحثاً عن الأصداف، وخلال الليل تقرأ حتى ساعات متأخرة.. لم تكن في حياتها أكثر سعادة، حتى حين كانت جاكي حية. فكل يوم الآن له نكهته الخاصة بوجود رالف. لكن ما كان يؤلمها أكثر أنه كان يناديها يا طفلتي العزيزة وهي كانت تريده أن يقول يا حبي العزيز.

مر اسبوع على وجودها في المركب قبل أن ترى داخل

قمرته، عادة حين يرسو المركب كانت الأبواب تفتح على مصراعيها طلباً للبرودة، لكن بوجود ستائر لتعطي الخلوة لكل قمرة. وكان رالف يبقي ستائره مقفلة طوال الوقت. في يوم تركها مفتوحة وهي تنزل إلى الأسفل وهو على الشاطيء، لم تستطع مقاومة اغراء رؤية ما إذا كانت شخصيته مطبوعة على جناح نومه بنفس القوة المطبوعة فيها شخصية المرأة على الجناح الذي تحتله هي حالياً.

كما توقعت قمرته كانت مرتبة نظيفة.. لا شيء مرمي هنا أو هناك، ولا حتى كتاب.. وتمنت لو تجد له صورة، أو صورة للسيدة الغامضة الليدي آن، لكن لم تجد سوى عدة بيجامات وخرائط ابحار.. فعادت إلى الوقوف خارجها مخيبة الأمل لعدم وجود شيء يخبرها أكثر عن الرجل الذي يملأ الآن معظم تفكيرها الواعي.

خرجت لتجلس في قمرة الجلوس، تنظر إلى فوق نحو قمرة القيادة حيث استطاعت رؤية جزء من پيپي وهو وراء الدفة، أخذت قلماً وورقة وبدأت ترسم ربلة ساقه وقدمه الحافية، منجذبة بشكلهما القوي. نزل رالف فجأة إلى الأسفل فتوقف لينظر إلى ما تفعل.

ـ ليس سيئاً.. ليس سيئاً بالمرة.. لكن ألن يكون وجهه أكثر إثارة من قدمه؟

لطالما وجدت سهولة في رسم الشبه، مع أن من كانت ترسمه لم يكن يعجبه النتيجة.. كان لها طريقة في الرسم لم تكن مقصودة، بل موجودة هكذا فيها، في إظهار القسمات البارزة أكثر فيمن ترسمه. بعد رسمها ليبي، دفعها رالف لأن ترسمه، وحين انهت الرسم، كانت متوترة من أن لا يعجبه. فقد جعلته يبدو عن غير قصد منها معقوف الأنف بحدة أكثر لكن هذا ما جعله مرحاً.

ـ أنت زسامة كريكاتور بديهية.. ربما ستتمكنين من جني المال من مهنة كهذه.. يبدو أن لك مهارة بحاجة لتدريب.

بعد اسبوعين من التوقف في البحيرات المفتوحة المداخل والرسو قرب البرازخ الصخرية المقفلة، وجدت تينا غرابة حين خرجت صباح يوم لتجد مركبهم يرسو بين سفينة شراعية تجارية ويخت تجاري كبير. وكانت تتثائب وتتمطى حين تقدم شاب من افريز اليخت ليقول مندهشاً:

ـ مرحباً.. متى وصلتم؟

ـ لست أدري. في وقت ما من الليل.. كانت نوبة الحراسة الأولى لي، بعدها غطست في النوم.

كانت المراكب ترسو ومؤخرتها نحو الرصيف ولكي ترى البلدة، كان عليها أن تدوس على صندوق لتصعد إلى المقدمة كي ترى الجانب الآخر من المرفأ والأبنية المكدسة خلفه.

كانت البلدة تشبه بلدات كثيرة شاهدتها من قبل، لكن بسبب بعد المسافة منذ رؤيتها لبلدة مماثلة في الحجم أحست بالإثارة. ولحق بها الشاب إلى مقدمة اليخت وقال:

ـ كنت نائماً كذلك حين وصلنا هنا.. ما هو هذا المكان؟

اخبرته تينا وهي تعلم المكان من قراءتها للخريطة.

فسألها:

ـ من أين جئتم؟

وضعت اصبعها على فمها وتقدمت نحوه، متسللة، كي لا يعلو صوتهما ويزعج النائمين تحت.. فقال لها:

ـ ما رأيك بالنزول إلى الشاطيء لشرب القهوة والتفرج؟

ـ حسناً.. لكنني لم أنظف اسناني بعد... ولن أتأخر.

بعد قليل عادت إليه وقد مشطت شعرها وارتدت فستاناً بدل الثوب المحلي فسألها:

ـ أيمكن أن نستخدم قاربكم؟

لو أخذت القارب فلن يبقى للرجلين وسيلة نقل ما بين المركب والرصيف.. لكن قد تمر ساعة قبل أن يستيقظ أي منهما.. هزت كتفيها وقالت:

ـ حسناً.. لا بأس.

كان ينتظرها عند أسفل سلم اليخت المعلق حين وصلت إليه ووجدت من الغريب أنه لم يعرض عليها الذهاب إلى الميناء

في القارب الصغير البلاستيكي الجميل المعلق إلى جانب اليخت. لكن بعد ربع ساعة وفي أحد مقاهي القهوة المضغوطة، ابتلع القهوة بسرعة ذكرتها بطريقة دوغي بعد ليل سهر طويلة فسألته:

- ألديك صداع؟

- اجل. وسأكون على ما يرام بعد القليل من القهوة.. على فكرة.. اسمي براد رومان.

- وأنا تينا تايلور.. هل اليخت لأبويك؟

هز رأسه:

- لا.. فوالداي في لوس انجيلوس وأنا في رحلة يسميها جولة ضلال.

- وما معنى هذا؟

- انه اسم لرحلة سنوية للتجارة وكسب الخبرة، لكنني لا أتاجر، وهذا واضح. حين انهيت دراستي أصرّ أبي على هذه الرحلة قبل أن أعود للانضمام إلى أعمال العائلة، والاستقرار لأصبح مواطناً صالحاً.

- وهل تمتعت بجولتك؟

- أحياناً.. وليس دائماً.

- وماذا تفعل فوق اليخت؟ أتعمل لأجرة سفرك؟

- حللت مكان ساقي كسر ساقه.

- اوه.. وكيف هم مالكوه، أهم أناس طيبون؟ أم أنه يخت مؤجر؟

- المالك أميركي ثري في رحلة استجمام وكنت أريد الوصول إلى برمودا.. فهل انتم متجهون إلى هناك؟

- لا اعتقد هذا.. أنا في طريقي من جزيرة صغيرة إلى مكان اكبر حيث استطيع الحصول على عمل.

عادة لا تشرح ظروفها لقريب، لكنه لم يبدو لها خطراً، على الأقل ليس في وضعه الحالي فشرحت له باختصار دون ذكر تسللها. وسألته:

- أيمكنك دفع أجرة سفرك أم مضطر لتعمل؟

- لا لست مضطراً للعمل، بامكاني العودة غداً من أي مطار قريب إلى لوس انجيلوس.. لكن الطريقة الصعبة تجعل السفر أكثر مرحاً.. بإمكان أي كان شراء تذكرة والسفر، ولاروح مغامرة في هذا.

- اذن عد معي إلى السي وايف لأعطيك دواء للصداع وربما تجد عند رالف ويبي نصيحة لتصل إلى برمودا.

وقف الشاب ليدفع ثمن القهوة، فتقدمت تينا نحو الباب لكنها اجفلت لرؤية رالف يتقدم من الميناء وعلى وجهه تعابير كانت قد شاهدت مثلها يوم استيقظ ليجدها على متن المركب.

حين شاهدها غيّر وجهته.. وفهمت ما الخطب، فلم

تضع وقتها للاعتذار:

ـ أنا آسفة رالف.. حقاً أنا آسفة، كنت اعتقد أننا سنعود قبل أن ترغب أنت أو بيبي في المجيء إلى الشاطيء.

ـ انتم.

في هذه اللحظة ظهر براد إلى جانبها. فقالت:

ـ هذا براد رومان.. من اليخت الراسي إلى جانبنا.. وهذا رالف سومرز.. قبطان السي وايف.

مد الشاب يده:

ـ كيف حالك؟

تجاهل رالف اليد الممدودة، لكنه تفحص براد بنظرة باردة مزدرية وكأن تينا عرفته على أقذر الحشرات. والتفت إلى تينا:

ـ كنت أعلم أنك ستسببين لي الازعاج عاجلاً أم آجلاً. لكنني لم أكن أتوقعها بهذه السرعة.. عودي إلى المركب ولا تغادريه ثانية دون إذن.

أمسك بمعصمها وبدأ يجرها وكأنه الأب الغاضب مع طفلته المتعتة. وتحملت سرعة سيره، وقبضته على معصمها لأكثر من مئة متر قبل أن تقول مقطوعة النفس:

ـ انت تؤلمني!

على الفور ارخى قبضته، لكنه استمر في السير السريع فوق رصيف الميناء، وهو يعلم أنها لن تجرؤ أن لا تلحق به..

وأخذت تتساءل كيف تمكن من الوصول إلى الشاطيء.

وقالت له:

ـ افهم سبب غضبك، واعتذرت.. لكنني لا أرى سبباً للفظاظة مع براد رومان.

دفعها نحو قارب صغير وقال باختصار:

ـ لا تهمني الكلاب الشاردة.

ـ كلاب شاردة؟ ماذا تعني؟

كانا قد وصلا إلى المركب، وشمّت رائحة الفطار يحضره بيبي فصعدت المركب، وبدأت تحس أن رالف يقيم الدنيا على شيء من لا شيء. حين لحق بها قالت له:

ـ هل أنت لا تريدني حقاً أن أنزل إلى الشاطيء أم انزعجت لأنني ذهبت دون إذن؟

لم يعد وجهه متجهاً كما كان قبل قليل، وقال:

ـ هل لك أن تنزلي إلى تحت، فهناك الكثير من حولنا يسرهم التفرج على الخلاف بيننا، كبداية مسلية لليوم.. لكنني افضل الخلوة.

* * *

- ٣ -

المرأة الأخرى

قبل أن تنفذ ما طلبه منها بلحظة، لمحت وجهاً من نافذة قمرة الطابق الأسفل لليخت. . تعابير وجه المتفرج كانت ماكرة حقودة، مما جعلها تتساءل عما إذا كان هو من لفت نظر رالف إلى غيابها.

في قمرة الجلوس، اشار رالف إليها لتجلس، وقال:

- حين طلبت مني أن آخذك معنا، تبجحت بأنك قادرة على العناية بنفسك، وقلت لك انني أشك في قدرتك. والآن سأتمكن من اثبات وجهة نظري. . ما هو انطباعك عن هذا، براد لست أدري ما اسمه؟

ترددت، ثم أجابت بصراحة:

- اعجبني.

- وماذا قال لك عن نفسه؟

- قال انه يمضي سنة بالتجوال حول العالم قبل أن يستقر لممارسة اعمال أبيه. . وأن أحد السقاة على اليخت كسر ساقه، فحلّ محله. وأن اليخت في رحلة استجمام وانه يريد الوصول إلى برمودا.

- ألم يذكر مالكي اليخت؟

- قال انه اميركي ثري.

- بل أميركية ثرية فصاحبته امرأة شهيرة. . وقد يصح فيها وصف السيئة السمعة. . فرداءة سمعتها اكتسبتها من تنقلها بين العديد من الأزواج ممن حصلت منهم على ثروتها، وعلى السرعة التي تغير فيها الآن اصدقائها من الرجال. . وهم غالباً من الشبان الأصغر منها سناً. . من النوع الذي كان يدعى «جيغلو» أو المعروف اليوم بالعابثين، وشبان الشواطيء. . ومن تعرفتي عليه، هو آخرهم لذلك دعوته بالكلب الضال.

- ربما يحبها. . إذا كانت كما تقول انها تزوجت العديد من الأزواج الأثرياء، فاتصور أنها لا بد جميلة.

- وهذا ما يجعله أحمق ساذج سلبت عقله الساقطة.

في هذه اللحظة قاطعهما، بيبي يعلن جهوز الفطار وأن على أحدهما إعداد المائدة. فقفزت تينا تحضرها. . ولم يكن من

عادتهم تناول الطعام بصمت.. فالصمت اليوم بدا متوتراً غير مريح.

كان هناك أوقات تحس تينا فيها أن صغر سنها وسذاجتها، وخبرة رالف بالحياة، وتشاؤمه منها، هي عوائق ستمنع وإلى الأبد أي علاقة بينهما، أو أي حلم لها بالقدرة على سحره أو أنه رقيق القلب ورومانسي.

بعد الفطار عاد إلى الشاطيء لوحده، حين عاد يبهي في القارب، لاحظ النظرة الكئيبة التي كانت تينا تنظر إلى صديقه، فتقدم منها وربت على كتفها:

ـ لا داعي للقلق.. فلن يتخلى عنك. وقد يقسو عليك، بين حين وآخر، لكن هذه هي طريقته.

ردت مرتابة:

ـ صحيح؟

ضحك وقرصها بلطف في خدها:

ـ طبعاً.. حين يعود، سيكون قد نسي كل غضبه.. إلا إذا ذكرته باستمرار عبوسك.

ـ اوه.. لن أفعل هذا، كل همي أن أرضيه.. ولا أريد أن أكون مزعجة لأي منكما.

ـ لست مزعجة أبداً..

شيء ما في الطريقة التي نظر فيها إليها، جعلتها تحس أنه

يعرف بأنها خسرت قلبها لرالف وأنه يحس بالأسى عليها.. ويعرف كذلك أنها بالنسبة لرالف ليست سوى قطة متشردة لم يستطع تجاهل موائها الجائع، لكنه لا يريد أن يزعج نفسه بها حقاً.

في الصباح التالي، وكان دورها في الخدمة، سألت عند الفطار:

ـ هل ستبقى هنا طويلاً، أم ستبحر قريباً؟

رد رالف:

ـ اعتقد أننا سنبقى اسبوعاً.

كان اليوم، موعد السوق الأسبوعي في الميناء... ويكيس كبير للتبضع نزلت إلى المرفأ لتشتري الطعام.. وامتلأ الكيس وأخذ يثقل، حين أحست أن ثقله قد انزاح عنها ووجدت براد بقربها.

ـ الديك وقت للقهوة.. أم أن الأخ الكبير يراقبك؟

ـ اوه.. لا.. فهو يعرف أنني جئت للتسوق.

تناولا القهوة على نفس الطاولة في نفس المقهى.. وقال لها:

ـ تركت اليخت، وجئت لأقيم في فندق الميناء... وأنا أبحث الآن عن سفينة أخرى.. لكن دون تعقيدات.

ـ وهل غضبت السيدة ماننغ لتركك اليخت؟

www.elromancia.com

- لا . . بل كانت سعيدة، اظنها قد وجدت لنفسها صديقاً آخر . . قبطان مركبك أو صديقه.

- أخبرني عن لوس انجيلوس، اتعيش في المدينة أم في الضواحي؟

وصف لها منزل العائلة، وعدد أفراد اسرته . . وكوّنت تينا الانطباع بعائلة متحابة، ليست غنية كما هي ليزا ماننغ، مالكة اليخت، لكن لديهم ما يكفي من المال ليعيشوا براحة في منزل واسع وحديقة كبيرة. حيث يقيمون الحفلات فيها وتلعب أمه التنس مع صديقاتها، نفس النوع من الحياة التي كان يمكن أن تنشأ فيها، لو أن والديها لم يتوفيا.

وهي تصغي إليه لم تدرك كم بقيا في المقهى، إلى أن عادت إلى مكان رسو السي وايف لتجد أن المركب اختفى، والمسافة بين اليخت والسفينة الشراعية فارغ، فصحت بصوت مصدوم:

- لقد ذهبا!

فقال براد:

- لا يمكنهما الذهاب هكذا. لن يتركاك.

لم تحس يوماً بمثل هذا الهجران والوحدة حتى ولا حين ابلغتها أماليا وأمها خبر موت دوغلاس، واكمل براد:

- لا بد أنهما ذهبا لتعبئة الوقود والماء.

والتفت ثانية إلى الرصيف حيث يمكن للمركب أن تقف في حال ارادت تعبئة الوقود والماء، لكنه لم يجدها، فعاد لينظر إلى وجه تينا المرتعب:

- لا تقلقي . . سأعتني بك . . لن أتركك لوحدك.

ظهر رجل على متن اليخت وصاح لهما:

- السيد سومرز ترك رسالة . . توقع عودتك منذ مدة طويلة يا آنسة. لقد أخذ السيدة ماننغ في نزهة بحرية لبضع ساعات . . وطلبت مني أن أبلغك تحياتها . . وأنت مدعوة للانتظار هنا. سنقدم لك الغداء . . ولا اعتقد أن الدعوة تشملك براد.

وتمتم براد:

- إنه قبطان يخت ليزا.

قالت له:

- الطعام سيفسد إذا لم نضعه في مكان بارد . . لكنني افضل قضاء وقت معك على الشاطيء . . انتظرني، لن أتأخر.

صعدت إلى اليخت وقالت للرجل:

- صباح الخير كابتن، أنا تينا تايلور . . لن أقبل دعوة السيدة للغداء، لكنني سأكون ممتنة لو حفظت لي هذه المشتريات في مكان بارد إلى حين عودة السي وايف.

- بالطبع آنسة تايلور . . خذي نصيحتي، ولا تتصادقي

كثيراً مع براد. إنه غير آهل للثقة.

ـ في هذا الجزء من العالم لا يوجد الكثير ممن يوثق بهم كابتن.

حين عادت لبراد واتجها إلى البلدة سألته:

ـ لماذا لا يحبك الكابتن؟

ـ انه لا يحب كل من تصادقه ليزا من الزجال.. هذا ما قيل لي. ولا الومه على هذا.. إنه متوسط العمر متزوج وله أولاد واعتقد أنه نسي الأمور التي فعلها وهو شاب.

بما أن كلاهما غير معتاد على الطعام الكثير وقت الظهيرة، فقد اشتريا بعض الفاكهة وأخذاها إلى شاطيء في مكان لا يبعد كثيراً عن البلدة. قبل عودتهما بقليل قال لها:

ـ اسمعي.. لماذا لا نوحد جهدنا. بامكاني تأمين ثمن تذكرتي سفر إلى برمودا، ومن هناك سأبرق لأبي ليرسل لي المال كي نسافر إلى لوس أنجيلوس، وستكون أمي مسرورة باستقبالك إلى أن تركزي قدميك.

ـ هذا لطف منك براد. لكنني لا أستطيع.

ـ ولماذا؟

ـ لأنني لن أستطيع اعادة المال لوالديك.

ـ لن تديني لهما به، بل لي. وأنا سأكسب اجراً محترماً حين انضم إلى مؤسسة العائلة. وسأتمكن من دفع الدين لأبي.

ـ لكن قد استغرق سنوات لأدفع لك. ولا أريد أن أكون تحت دين كهذا لأي أحد.

ـ أتظني أنني سأستغلك؟

ـ لا.. لا أقصد هذا، ولا أفكر به، وأنا واثقة أن عرضك كله لطف.. قد لا يثق الكابتن بك، لكنني أثق بك.

وابتسمت له، فرد الابتسامة بحرارة:

ـ لو استطعتي الوصول إلى جزيرة يديرها الأميركيون فستحصلي على رحلة مجانية إلى أميركا.

ـ مجانية؟ كيف؟

ـ هناك أموال مخصصة لمساعدة الرعايا الأميركيين، خاصة من هم تحت السن القانونية.

ـ في الوقت الحاضر، ليس لدي جواز سفر حتى، يثبت أنني أميركية.. لكن رالف قال انه سيساعدني للحصول على جواز.

تمتم براد:

ـ اتساءل ما هي دوافعه. لمساعدتك اعني. لا يبدو لي لطيفاً.

ـ ولا أنا اظنه هكذا. حين طلبت منه المساعدة رفض في البداية.

ـ ثم غيّر رأيه فيما بعد؟

ـ لا.. فأنا على متن مركبة بالإكراه.. أترى.. لقد تسللت إليه.

ـ يا إلهي.. كانت هذه مخاطرة.. أليس كذلك؟ كان يمكن لهما أن يكونا محتالين أو.. حتى أسوأ.

ـ هذا ما قاله رالف: كيف تثقي بنا؟ لكنني احسست أنني اثق بهما.. وكنت محقة.. أتشك أنهما محتالان؟

ـ لا.. لا أظن هذا. وأظن رالف رجل ثري، يوازي ليزا ماننغ، لكنه يظهر التواضع.

ـ لا.. فرجل ثري لن يكون مكتفياً بذاته كما هو.. وبيبي ليس خادمه، فهو يأخذ دوره في كل الأعمال، ورأيته يخيط زراً بكفاءة امرأة.

ـ ربما تظاهر بأنه البحار الكفوء.

حين وصلا المرفأ كانت السي وايف قد عادت إلى مكانها، وللتأكيد على ما ذكرته ثينا، كان رالف ينظف السطح بينما كان بيبي متمدداً على كرسي طويل يشرب المرطبات. وقال لها براد بعد أن شاهدهما رالف يقتربان:

ـ أتتناولين العشاء معي؟

ـ الليلة دوري في المطبخ.. وأنت تعرف الآن موقفي..

ـ وهل ستكونين في البلدة صباح الغد؟

ـ ربما.. لست واثقة.

والتفتت إلى رالف:

ـ تركت المشتريات في اليخت.

ـ احضرتها كلها.

ـ اوه.. جيد.. شكراً لك.

فجأة احست بالذهول والصدمة لقول براد دون اخفاء سخريته:

ـ لقد افزعتماها حين لم تجد المركب. ظننت أنكما تخليتما عنها.

نظر رالف إلى الشاب نظرة غموض، ثم التفت إليها:

ـ هل اعتقدت هذا حقاً؟

ـ اجل.. للحظات.

ـ سخافة منك.. لو أردت التخلي عنك لما أعطيتك المال، وأرسلتك إلى السوق، ثم اتسلل هارباً.. كنت وضعتك على الشاطيء وقلت لك وداعاً.

التفتت إلى براد بسرعة:

ـ وداعاً براد.

سرّها أنه لم يبق حيث هو بل عاد وابتعد. وإلا لسمع تعليق رالف الساخر:

ـ إذن، بعد طرده من اليخت، يحاول التقرب إليك على أمل أن يجد له مكان معنا.. أليسَ كذلك؟

استطاعت اخفاء سخطها، وإبقاء صوتها هادئاً وهي ترد:

- لم يطرده أحد. ترك اليخت باختياره. وهو يعلم أن لا تأثير لي عليك وعلى بيبي.. لقد أسأت الحكم عليه تماماً.. وفي الواقع عرض علي أن يدفع اجرة السفر حتى برمودا.. ثم يتصل بوالده ليرسل له المال لسفرنا إلى أميركا.

- حقاً؟ وهل قبلت عرضه الرائع؟

- لا.. لم أفعل.. فلم أكن أعرف متى استطيع رد دينه.

- ربما لا يريد استرداد الدين.. أو ربما ليس فقط.

أدارت رأسها نحوه بغضب:

- هذا أمر قذر تلمح به! وبراد ليس هكذا. لماذا تتحامل عليه؟ حسناً.. كان يساكن ليزا ماننغ، لكن ليس ككلب لها كما أشرت.. غازلته فاستجاب لها. فهل هذا أمر يعيبه هو؟

والتفتت مبتعدة عنه لتنزل إلى الأسفل وتبدأ الطبخ. لكنه لم يتأخر في اللحاق بها. وشاهدته يفتح البراد ليأخذ زجاجة مرطبات.. فتناولت الفتاحة واعطتها له. وسألت متوترة:

- هل ستتناول العشاء في المركب أم لك ترتيبات أخرى؟

استخدم الفتاحة، ومد يده من فوقها ليعيدها إلى مكانها. وهو يسحب يده، امسك بوجهها واداره نحوه. وقال بنعومة:

- لا تحاولي الشجار معي تينا.. فلن تكسبي.

- لا أريد الشجار معك.. ولا اغضابك مني.. أنا ممتنة

لك جداً لمساعدتك لي.. لكنك تكره براد وهذا غير عادل. إنه شاب جيد.

- وهل وقعت في حبه؟

- بالطبع لا! كيف يمكن هذا.. وبسرعة؟

احست باحمرار وجهها، فعادت للاهتمام بتقطيع الطماطم. وسمعته يسأل:

- وهل ترغبين في أن أعاود توددي إليك؟

نظرت إليه بسرعة وشاهدت السخرية على وجهه، فقالت:

- اذا كنت ترغب.

- سألتك إذا كنت ترغبين أنت.

- بخبرتك بالدنيا والناس، اعجب لسؤالك.

ضحك عالياً:

- حركة دفاعية بارعة! أنت لست عاجزة كما تبدين.. والآن للرد على سؤالك، أجل سأتعشى هنا الليلة.. لكن فيما بعد سننضم إلى ليزا لشرب المرطبات والقهوة.

وعاد إلى السطح، حين أصبحت لوحدها، اسندت رأسها للحظات على الرف المقابل لها وعيناها مغمضتان، قلبها يضرب بسرعة، يداها ترتجفان.. لو أنها قالت له ببساطة «نعم» أكان سيخنقها كما فعل قبلاً؟ أم أنه كان يمازحها؟

بينما كان رالف وبيبي ينظفان الطاولة والصحون بعد العشاء توجهت تينا إلى قمرتها لتغير ثوبها المحلي.. في بداية كانت قد قررت أن ترتدي ثوبها الأخضر، لكنها برؤيتها للمرأة الأميركية ترتدي بنطلوناً ذهبياً لماعاً، وبلوزة حريرية بيضاء شفافة قررت أن ترتدي ثوباً من خزانة الليدي آن.

وجدت ثوباً قطنياً أسود اللون، ياقته واسعة وله رباطات رفيعة للكتفين.. نصفه الأعلى ضيق، وتنورته واسعة طويلة، املت أن يظهرها أكبر سناً. خاصة إذا عقدت شعرها فوق رأسها، وسترتدي حذاء عالي الكعبين من أحذية الليدي كذلك.

حين خرجت من قمرتها، سمعت الرجلين يتحركان في قمرتيهما. فصعدت إلى قمرة القيادة، تسير بحذر فوق الكعبين العاليين التي لم تعتد عليهما. كان بيبي أولهما في الانضمام إليها:

- لم أكد أعرفك.. ماذا فعلت بنفسك؟

- إنه ليس فستاني.. بل كان في الخزانة وقال رالف إنني استطيع استخدام أي شيء فيها.. لكن لست أدري.. ربما ما كان يجب أن أفعل.

- لا أذكر انني رأيته من قبل.

كان بيبي يرتدي قميصاً احمر اللون وبنطلوناً رمادياً..

وحين ظهر رالف كان في قميص قصير الأكمام فوق شورت أبيض.. ونظر إليها من فوق إلى تحت، ثم العكس، ولم تستطع أن تعرف إذا كان قد تعرف إلى الفستان أم لا. والتفت إلى بيبي:

- لا أظن أحداً سيستطيع مجاراة «البريمادونا» هنا.. أليس كذلك بيبي؟

- لا.. فهي رائعة!

مع ذلك فقد جعلاها تحس أنهما لا ينظران إليها نظرة الكبيرة في السن أو المحنكة، وأن ما هي عليه الآن هو مجرد تغيير اصطناعي.. لكن يبدو أن ليزا لم تكن تنتظر هذه النظرة. إذ قالت:

- انه تغيير رائع.. سيدور له رأس براد لا شك. ولسوء الحظ لن يكون هنا الليلة.. لكنني واثقة أن هناك من سيسليك.

في الواقع لم يمض وقت طويل قبل أن يتحلق حولها جمع من الرجال، مع أن النساء كن قليلات بين المدعوين. بعد مرور الساعة، اشارت لها ليزا وقالت بصوت ودود:

- دعيني أريك قمرتي.. في حال احتجت للراحة فيما بعد.

اخذتها إلى الأسفل لتريها قمرة أكبر من غرفة عادية..

أثاث رائع وسقف كله مرايا، ثم فتحت باب الحمام المجهز كله بحوافي من ذهب.. كان بالفعل مدهشاً حتى الصدمة... لكنه لم يعجب تينا بقدر اعجابها بغرفتها في السي وايف... وتساءلت ما الجامع المشترك ما بين ليزا ماننغ والليدي آن. لكن، تبين لها أن سبب تغيير تصرفات مضيفها نحوها هو الرغبة في أن تسألها عن رالف. حين لم تتمكن تينا من الإجابة على عدة أسئلة قالت المرأة:

- يبدو أنك لا تعرفينه جيداً.

- صحيح.

- الست فضولية؟

- ليس كثيراً.

ردت ليزا بصراحة:

- لكنني فضولية.. أينام معك؟

- أظن أن هذا شأننا الخاص.

ضحكت المرأة:

- انت لم تجيبيني.. أليس كذلك حبيبي؟ انت تخافين أن آخذه منك.

- لكنه ليس لي.

- لا.. لكنك ترغبين في أن يكون لك.. إنه رائع.. لو كنت مكانك لما تعلقت به كثيراً. لقد كنت في وضعك يوماً..

صغيرة وجميلة، والسبب في وصولي إلى هنا، إنني لم أسمح لرأسي أن يستدير نحو شبان قد يكونوا من المحتالين.

- انه ليس بالمحتال، وهذا ما اعرفه جيداً.

- تعرفينه أم تأملين به؟ أتعلمين ما قد افعله لو كنت مكانك؟ لن أثق برجل مغرور بنفسه، بل ارمي بثقلي على شاب مثل براد رومان، مستقبله زاهر.. ولا يمكن أن تسيء إلى نفسك معه.

- سأترك لك الميدان خالياً مع رالف؟

ردت ليزا بثقة:

- الميدان خال منذ الآن. وإذا لم تصدقي فراقبيني.

وعادتا إلى السطح لتمضي السهرة كلها تراقصه. لكن بالرغم من جذب كل اهتمامه لفترة ما.. إلا أنه لم يكن مشغولاً تماماً كي لا يلاحظ وقوع تينا في متاعب مع شريك رقص، فتقدم لينقذها منه بطريقة سهلة.. لكن الرجل لم يقبل بهذا الوضع دون عدائية وضجة. ولاحظ بيبي ما يحدث فتقدم إليهما:

- هذه الحفلة بدأت تفلت.. هل اعيدك إلى المركب تينا؟

قبل أن ترد أجاب رالف:

- فكرة جيدة.. اراك في الغد.. تصبحين على خير.

سألت بيبي وهما عائدان:

- هل سيمضي الليل معها؟

- لا أظن أن هذا من شأني.. تينا الصغيرة.

اعترفت بتعاسة:

- لا.. ولا أظنه من شأني.. حسناً، أنا لا أحبها.

ولوقت طويل، بقيت مستلقية دون نوم، ليس بسبب استمرار تصاعد الأصوات من اليخت، بل بسبب تفكيرها بما يفعل رالف الآن مع المرأة.. لكنها قبل أن تغفو تماماً سمعت صوتاً على المركب، وبيبي يسأل:

- أهذا أنت رالف؟

ونظرت إلى الساعة لتجد أنه مرت نصف ساعة فقط على آخر مرة نظرت إليها.. لكن لو أن رالف لا يهتم بالمرأة، فلماذا الانتظار في مرفأ ليس فيه ما يثير الاهتمام؟

وجود سبب آخر لبقائهم لم يظهر جلياً لها إلا بعد يومين حين عاد رالف من البلدة وقال لها:

- حصلت على رد على برقيتي إلى بتسفيل.. لكن لسوء الحظ لم يجدوا واحداً له اسم عائلة امك الأصلي مسجل في سجلات المنطقة حيث ولدت أو تزوجت.. لكن هذا ليس الدليل القاطع أن لا أقرباء لك.. لكنه يجعل الملاحقة صعبة.

- ألهذا السبب نحن هنا؟ للحصول على رد؟

- أجل.. لم أذكر لك البرقية كي لا أثير أملك.. لكن

بدلاً من خيبة الأمل، تبدين مرتاحة.

ردت بصراحة طائشة:

- لأنني ظننتك مهتم بليزا ماننغ.

رفع حاجبه بسخرية:

- قلت لك رأيي بها منذ مدة.

- صحيح.. لكن هذا لا يمنع أن تكون جذابة.

- ليس بالنسبة لي.. وهكذا في صباح الغد ستتحرك من هنا، ولا حاجة لتقلقي نفسك بشؤوني الأخلاقية.

باكراً في الصباح التالي، حين نزل الرجلان إلى الشاطيء لشراء آخر ما يحتاجون إليه، كانت تينا تنشر الغسيل، فسمعت صرخة عند مقدمة المركب، وشاهدت رجلاً في ثياب رسمية يقف هناك:

- هل القبطان هنا آنسة؟

هزت رأسها:

- إنه عند الشاطيء.. هل استطيع المساعدة؟

- هل لك بالنزول إلى البر، ارجوك.

ادركت أنه من رجال الشرطة.. وسألها:

- ما اسمك آنسة؟

- تينا تايلور، ما الخطب؟

تجاهل سؤلها، وسأل:

ـ أنت أميركية؟

ـ أجل.

ـ قريبة للسيد سومرز؟

ـ لا.. بل صديقة.

ـ كم سيطول غياب السيد؟

ـ لست أدري ربما دقائق ربما ساعة أو أكثر.

ـ حين يعود قولي له أن يحضر إلى دائرة الشرطة.

بدلاً من التحية كما يفعل أي رجل مهذب ابتسم لها بخبث وابتعد. عند نهاية الرصيف صعد في سيارة وانطلق بها.

ما نوع المشاكل المتورط بها يا ترى؟ لا شيء إجرامي، هذا أمر مؤكد.. لكن في نفس الوقت عليها أن تعترف لنفسها انها في الواقع لا تعرف عنه شيئاً، وقد يكون أكبر محتال في الكاريبي.

إلى أن عاد الرجلان، كانت تكمل عملها وفكرها مشتت مضطرب.. لكن ردة فعل رالف على الرسالة لم تكن لرجل لديه شيء يثقل ضميره.. كذلك لم يُظهر بيبي أي دليل على القلق خلال غياب صديقه، بل شغل نفسه في تحضير الغداء مع الصفير المرح المعتاد.

حين عاد رالف كانت تعابير وجهه حزينة حتى انها

تساءلت عن السبب قبل أن يعلن وهو يطوّح بنفسه إلى الداخل:

ـ أخبار سيئة كما أخشى. والدك مريض بيبي.. وحالته خطرة، لحسن الحظ هناك طائرة خاصة ستغادر الجزيرة بعد ساعتين، ومع قليل من الحظ يمكن أن تلتقط طائرة أخرى إلى موطنك بسرعة.

دهشت تينا لسرعة اندفاع الدموع إلى عيني بيبي... وقال لها رالف:

ـ والده زعيم مهم.. ولهذا السبب كانت الجهود مكثفة للاتصال به.

ذهبت تينا معهما لوداع بيبي.. حين عادت بهما سيارة أجرة إلى البلدة قال لها رالف:

ـ ما كان من الممكن أن يطلبه أحد لو أن لوالده فرصة في الشفاء. وأخشى أن تكون هذه آخر رحلة لنا معنا. من الآن وصاعداً سيكون منشغلاً في استلام الزعامة:

ـ وكيف اصبحتما صديقين؟

ـ جده كان الزعيم حين جاء جدي إلى جزيرتهم كمسؤول للمستعمرات هنا. وكان هذا بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة. بيبي وأنا نعرف بعضنا مذ كنا أطفالاً. إنه صديق رائع.. لا أحد غيره يمكن أن يقف معي عند الحشرة.. وكم

حشرنا في زوايا قاتلة..

حين عادا إلى المركب، لم تتمالك نفسها، بالرغم من حزنها على فراق بيبي، إلا أن تشعر بالسعادة لأن الجو خلا لها مع رالف. لذلك كانت خيبة أمل لها حين ذهب بعد الغداء إلى البلدة دون دعوتها لترافقه، لكنه طلب منها أن توصله إلى الشاطيء في القارب، وحين اقترحت عليه أن يأخذه معه ويتركه قرب الرصيف رفض وقال انه يفضل بقاء القارب قرب المركب.

في غيابه، استلقت في قمرتها ساخطة لتركه لها. وتمنت لو تعرف عن الرجال نصف ما يعرفه هو عن النساء.. من هن النساء يا ترى اللواتي اكتسب منهن نظرته الخبيثة لتهورها وردات فعلها؟

بعد أقل من ساعة سمعته يناديها، فصعدت إلى السطح.. بدهشة، لم تجده لوحده، بل كان براد معه.. وقال لها:

- لقد دعوت رومان ليحل مكان بيبي.

- لماذا؟

أدركت على الفور أن سؤالها سيؤلم براد.. فيما بعد وهو عند المقدمة، وهي مع رالف في قمرة القيادة، اغتنمت الفرصة لتقول:

- كان يمكننا أن ندبر أمرنا لوحدنا.. كان يمكن أن

أساعدك في الإبحار.

فسألها بنظرة محتارة:

- ظننتك ستسعدي لوجوده.. الست هكذا؟

- ليس بوجه خاص.

- يجب أن يسرك تغير رأي الأولي به.

- أنا مسرورة.. لكن..

- لكن تفضلين أن نكون لوحدنا؟

ردت بجرأة:

- أجل.. أجل، كنت سأفضل هذا كثيراً.

- ولهذا بالضبط، تينا الصغيرة.. سبب دعوتي له.

* * *

- ٤ -

خذني معك

في الأيام التي تلت لم تستطع تينا إلا أن تجد وجود براد متطفلاً بشكل زائد، كان يجلس إلى جانبها يثرثر، حين تريد أن تكون صامتة.. ثم، مع انه اقصر قامة وانحل عوداً من رالف، لم يكن خفيف الحركة مثله.. اكثر من مرة داس على أصابع قدميها الحافية ليؤلمها، وكان يعتذر أكثر من مرة وتكراراً. حتى انها اضطرت مرة لأن تزجره:

- اوه.. دعك من الاعتذار براد، فأنت لم تكسر عظامي.

وبدا عليه الأسى، وقال رالف محتاراً:

- لقد جرحت احساسه أكثر مما آلم لك قدمك.

قبل أن يغادر المرفأ، اشترى لها رالف ادوات الرسم..

اضافة إلى علبة تلوين مائي.. وكان يجعلها كل يوم تمضي على الأقل ساعتين ترسم وتلوّن. وكان يجلس هو أو براد أمامها لتتمرن على التقاط الشبه.

اللوحة التي رسمتها لبراد كانت جيدة.. لكن، وبسخط وجدت أنها لم تنجح مع رالف. كانت تظن أن وجهه، بقسماته الواضحة وتبيانه العظمى البارز سيكون الأسهل.. لكن بالرغم من تسجيلها قسماً منه بشكل صحيح إلا أن القسمات التي كانت تأمل أن تحتفظ بها للمستقبل حين يتركها فجأة كما دخل حياتها فجأة، راوغتها ولم تستطع تسجيلها. صحيح ان النتيجة كانت قريبة الشبه، لكن كانت تعوزها النوعية التي أملت ان تسجلها على الورق.

بتفحصه كل رسماتها قرر أن رسم الأزهار هو الأكثر نجاحاً وان هذا قد يكون الحقل الذي يجب أن تركز عليه.. ثم فاجأها بقوله:

- سأنزل للسباحة.. ما رأيك؟

سبحا معاً تحت نور القمر.. وحين عادا إلى المركب سبقها رالف ومد يده القوية ليسحبها إلى فوق.. ملتفان بالمناشف، جلسا في قمرة القيادة يشربان القهوة. وأحست انه لو بدأ بمغازلتها الآن فستغوص بين ذراعيه هانئة.. لكنه بدلاً عن ذلك جفف لها شعرها إلى أن انقطعت انفاسها، ثم أرسلها إلى

النوم بضربة على مؤخرتها.

كانت تأمل، بعد صدها لبراد أن يتراجع قليلاً. لكن يبدو أنه لم يأخذ رفضها له كأمر نهائي. وبدأت تفكر أن أفضل طريقة لصده هي أن تقول له إنها تحب رالف.. لكن ما كانت ترغب به أكثر هو اختبار ردة فعل رالف لو علم أن براد قد صرح لها بحبه وطلب الزواج منها.. لكن كان صعباً عليها أن تختلي لبضع دقائق معه، فمن طلوع الشمس حتى بريق النجوم، كان براد إما معهما أو على مرمى السمع.

جاءت فرصتها بعد ظهر يوم كان فيه براد يتصيد الصدف معتمراً أداة التنفس، عادة كان يضغط عليها لترافقه، لكنها هذه المرة قالت له انها ستلحق به.. وانهت خياطة فتق في فستانها الأزرق.

كان رالف في المطبخ يصلح عطباً في الرفوف، وما أن سمعت صوت غطس براد حتى حملت ما تخيطه، ونزلت لتقف بباب المطبخ وقالت له:

- هل هناك أية تصليحات خياطة يمكن أن أقوم بها لك؟

- لا اظن.. شكراً لك تينا. ربما براد عنده تصليحات.

- آن له أن يتعلم اصلاحها بنفسه.

- لماذا تعرضين التصليح لي إذن؟

- هذا امر مختلف.. فأنا لم أقل أن على الرجال الخياطة

بأنفسهم. فقط أن يعرفوا كيف. أما هو فلم يتعلم شيئاً. أمه وشقيقاته كن يقمن بكل شيء له، ويبدو أنه أصبح يظن أن هذا حقه.

- في عالمه ربما.. لو أن لدي زوجة لن أدعها مسترخية لأخيط بنطلوني بنفسي.

- براد يريدني زوجة له.

تلقى رالف الخبر دون دهشة:

- وهل يروقك طلبه؟

- افكر به.

- كان يجب أن ترفضي على الفور.

- ولأي سبب؟ لديه الكثير يقدمه له.

واخذت تردد ما قاله لها براد. فقال لها:

- لكنك فتاة معطاء.. ولا تأخذي شيئاً، فقد لا تشعري بالارتياح في ظل الحياة الآمنة.

- ربما يعتقد أنني سأمنحه هذه الحياة.

- إنه يحبك، ولهذا لا يستطيع التفكير السويّ.. بالنسبة لكلامه هو من بيئة لا تعرفي عنها شيئاً.. عالم للمرأة والقهوة و «الصبحيات» والغداء والعشاء وللرقص، ولا أرى أنك تتناسبين مع هذا النوع من الحياة.

- قد أتناسب، حين اعتادها.

ـ أنا لست محللاً نفسياً، لكنني اعلم أنك لست من النوع الذي يتمتع بالنشاطات الجماعية. انت مستقلة، ولن يحب براد زوجة قد تصبح مستغرقة في رسوماتها مثلاً حتى ان عشاءه لا يجهز في الوقت المناسب.. موهبتك عندها يجب أن تبقى مجرد هواية، لا اهتماماً جدياً.

ـ انت واثق جداً من هذا.

ـ ليس تماماً.. مجرد نظرية. يبدو أنك تطلبين رأيي وأنا أعطيه لك.. وقد أكون مخطئاً. لكنني واثق من أمر واحد: أنت لا تحبيه..

ـ وكيف تعرف.

ـ لأنك لو كنت تحبيه لما ترددت ولما طلبت نصيحتي..

ضمها بسرعة وطبع قبلة على رأسها وتابع:

ـ ولما أحببت أن أفعل هذا، ولما اردتني أن أفعل مرة أخرى.

رفعت نظرتها المجفلة إليه، وسألت مختنقة:

ـ وهل ستفعل مرة أخرى؟

مرت لحظات مليئة بالتوتر الصامت، قطعتها فجأة صرخة مرعبة من الخارج.. فتركها رالف مندفعاً إلى السطح صحيح أن لحظات مرت قبل أن تلحق به إلا أنها حين وصلت إلى السطح كان قد أصبح في الماء متجهاً إلى نقطة تبعد ما لا يقل

عن الخمسين متراً حيث كان براد يضرب الماء متقلباً، واضح أنه يعاني مشكلة ما.

فكت تينا القارب، وربطت الحبل حول خصرها بسرعة ونزلت من على جانب المركب إلى القارب، وامكانيات عديدة تتراوح في ذهنها، بعضها خطيرة وبدأت تجذف خلف رالف الذي كان يشق الماء بسرعة خارقة.

لو أن سبب صراخ براد المذعور كان رؤيته كلب بحر مفترس، ورالف لا يملك سلاحاً.. وجف فمها خوفاً.. صحيح أن رالف لا بد يعرف كيف يتعامل مع سمكة قرش.. لكن لو أن معه سكين.

أخيراً وصلت اليهما وساعد رالف براد في الصعود إلى القارب وكانت راحتها عظيمة حين لم تجد فيه أي ضرر وبمساعدة رالف كذلك ارتفع إلى المركب وسأل شاهقاً:

ـ ما الذي لسعني بحق الشيطان؟ أحسست وكأن سهماً مدبباً ضربني، لكنني لم أشاهد شيئاً.

قال رالف:

ـ ربما قنديل بحر.

لهجته العادية لم تخف اهتمامه الذي علمت تينا أنه يحس به.. وتابع:

ـ من الأفضل أن تسترخي وتنام قليلاً، وسنضع الثلج على

يدك.

هل تهتمي بهذا تينا؟ ولمجرد الاحتياط، سنتجه إلى جزيرة فيها طبيب، فلو تورمت ذراعك، سيعطيك حقنة.. لكن هذا على الأرجح لن يحدث.

صعد رالف إلى السطح.. فسألها براد:

- هل قنديل البحر سام؟

- هذا يتوقف على الشخص المصاب، الكبير في السن أو الطفل قد يمرض جداً، لكن في مثل سنك فلن تشعر بالألم، بل مجرد غثيان. سأصعد إلى السطح لأساعد رالف.

على السطح حيث كان رالف يفرد الشراع استعداداً للانطلاق سألته:

- ألا تظن من الأفضل ربط يده مكان اللذعة؟

- هذا إذا كان هناك عون طبي قريب.. لكن لا تقلقي: إنه شاب وقوي. وأخبار اللسعات مبالغ فيها. وربما لن يحس سوى بارتفاع في الحرارة.

في الوقت الذي انسابت فيه سي وايف فوق الماء بسرعة، بدا براد يصاب بالدوار، وانشغلت تينا بتحضير العشاء، مع انها قلقة على براد فقد كانت ممتنة أنه هو المصاب وليس رالف. ليس لأن رالف يعني لها أكثر، بل لأنه يعرف كيف يتصرف في مثل هذه المواقف. حين نزل رالف إلى القمرة قالت له تينا:

- يبدو أنه نائم.

تقدم ليتفحصه ثم قال:

- يبدو أنه في غيبوبة وليس نائماً.

- وهل هذا أمر سيء؟

- ليس بالضرورة.

في منتصف الليل بدا براد مريضاً جداً ويعاني من ارتفاع في الحرارة واشتكى من الصداع.. ومع أن تينا تذرعت أنها لا تحس بالنعاس إلا أن رالف أجبرها عند الساعة الواحدة على الذهاب إلى فراشها.

ولدهشتها، نامت بسرعة.. لكن راحتها اقلقت بكابوس ايقظها رالف منه حين أضاء النور وجلس قربها.. حلمت أنه مات، والراحة في رؤيته حياً كانت كبيرة حتى أنها جلست بسرعة وأحاطت عنقه بذراعيها.. فسألها وهو يحضنها ويربت ظهرها:

- كنت تهذين.. بما كنت تحلمين.

- حلمت أنك مت.. وأن القنديل لسعك أنت، ولم استطع انقاذك.

وأخذت ترتجف، مع انها كانت تحس بتنفسه الحار وقوة يديه إلا أن تفكيرها كان لا يزال مشلولاً من الكابوس المرعب، الذي راقبته فيه وهو يموت بعد ساعات من الألم.

ـ صنعت بعض القهوة لتوي، وسآتيكَ ببعضها.

تعلقت به:

ـ لا.. لا.. لا تذهب الآن.

ارخى أعصابه وابقاها في أحضانه.. بعد قليل أخذ الكابوس يفقد ثقله، وارتياحها بين ذراعيه بدأ يشحنها بإحساس من نوع آخر. وجهها كان مدفوناً في صدره.. وتساءلت ما إذا كان ما تشعر به قد يصل إليه.

ـ عزيزتي تينا.. أنا متعب، لكنني لن أستطيع الراحة هكذا إلى وقت طويل.. ثم أن القهوة ستبرد.

وابعدها بلطف عنه.

بعد أن تركها فقط، ادركت أنه يعني أن احتوائها بين ذراعيه كان له التأثير عينه عليه كما كان عليها.. ما عدا، بالنسبة له، أية فتاة يمكن أن يكون لها نفس التأثير.

حين عاد بالقهوة سألته:

ـ كيف حال براد؟

ـ حرارته انخفضت، ولو انه تقيأ من جديد، وهو نائم الآن.

ـ الساعة تقارب الرابعة صباحاً، ويجب أن اريحك قليلاً.

ـ حسناً.. لكن لا تترددي في منادتي عند أي مشكل.

ـ مرّت فترة حراستها بسرعة، والمركب تشق طريقها فوق

مياه ساكنة.. وبراد لا يزال نائماً.. قبل التاسعة بقليل، نزلت لتوقظ رالف.. لم يتحرك حين فتحت بابه. كان يضجع وظهره اليها، في وضع يبرز عرض كتفيه أمام نحول خصره ووركيه.. وحفت يدها على عظم كتفه الأعلى، تفكر بأن تتمتع بملمس بشرته للحظات.. لكن، مع أن لمستها كانت خفيفة، إلا أنها أيقظته، ليستدير بسرعة وهو كامل الصحو:

ـ ما الأمر؟

ـ لا شيء.. وبراد يبدو أفضل حالاً.

ضوّح ساقيه إلى أرض القمرة الخشبية ووقف محنياً رأسه من تحت الرف الذي يعلو سريره الخشبي المعلق، وقال:

ـ الأفضل أن تعودي إلى النوم، أربعة ساعات لا تكفي فتاة مثلك.

ـ لكنني جائعة.. وسأحضر لنا الفطار بينما تغسل وتحلق.

بالكاد انهيا الفطار حين صدرت آهة مخنوقة من براد، في قمرته وجداه يعاني من موجات تشنج مؤلمة. بعد ان فعلا ما بوسعهما لتخفيف المه، تركاه مع اصرار رالف على أن تنام، إذا لم يكن في قمرتها فعلى الأقل على كرسي طويل على السطح.

وسألته:

ـ كم تبعد أقرب محطة طبية؟

ـ إذا استمرت الريح هكذا، سنصل قرابة فجر الغد.

- لكن هذا ساعات!

- وهل يجعلك مرضه تحسين أنك مخطئة؟

- مخطئة؟

- برفضك عرضه للزواج.

- وكيف.. كيف عرفت أنني رفضت؟

- ببعض المنطق البدائي.. فلو قبلتي، لن تبقيا الأمر سراً.

- أجل.. رفضته، لكن هذا القرار لن يؤثر عليه مرضه.

- لكنك تبدين قلقة عليه.

- طبعاً أنا قلقة.. الست أنت قلقاً؟

- أنا مهتم بفعل أي شيء له.. لكنني غير متورط عاطفياً.

ردت دون تفكير:

- وهل كنت متورطاً يوماً؟

لكنه رد ببرود:

- ليس دائماً.

- أوه.. لم سألتك هذا؟ أنا آسفة.

- انت متعبة.. نامي.

عند الظهر أيقظها، فسألته على الفور:

- كيف حاله؟

- ليست جيدة.

لكن هذه كانت ملاحظة غير دقيقة.. فبراد كان محموماً،

والعرق يبلله، حتى انهما توقفا عن تغيير اغطيته واستخدما المناشف.. في المساء أخذ يهذي.. ذراعه، بالرغم من الثلج، انتفخت إلى ضعف حجمها. أحياناً، كان يتمسك بيد تينا ويتمتم باسمها.. وأحياناً لا يعرف أيهما يلمسه.. تلك الليلة لم يحصل أيهما على الراحة.

انشغل رالف بمحاولة الاتصال مع وجهتهم عبر الراديو. كي يدفع بالمحطة الطبية إلى التحضير لوصول المريض. ما بين الثالثة والرابعة صباحاً.. ظنت تينا أن براد سيموت. فالحمى اصبحت كالأتون، ولم يعد باستطاعتها مساعدته على شرب الماء.. إذ لم يعد قادراً على الابتلاع، وأخذ يعاني صعوبات في التنفس.. في لحظة ما فتح عيناه، وصحا فجأة، وقال بصوت متهدج:

- هل سأموت؟

جاء الرد من رالف، الذي دخل لحظتها إلى القمرة:

- لن تموت على مركبي.. استجمع قواك يا فتى.. سندخلك المستشفى قريباً.. وسرعان ما يداونك.

زاغ بصر براد من جديد.. اسمع الرد، أو صدقه، أمر مستحيل معرفته.. لكن تينا لم تصدق. وضع رالف يده على كتفها وضغط عليه:

- حضرت لك بعض السندويشات وقهوة. اذهبي

واستريحي عشر دقائق.

مجموعة من الناس، وثان قديم الطراز أبيض اللون عليه اشارة الطوارىء، كانوا بالانتظار حين رسى المركب.. ايد خبيرة التقطت الحبال، وسهلت ربط المركب بالرصيف، بينما سارع رجلان مع حمالة إلى سطح السفينة ليحملا براد إلى البر. بدا في حالة ميؤوس منها حين وضع في سيارة الاسعاف، حيث بدأ الطبيب على الفور يتفحص حالته.

اخذ رالف وتينا إلى المستشفى في سيارة البوليس. الجزيرة المستقلة هذه، كانت يوماً مستعمرة هولندية، والتأثير لا زال قائماً.. ما إن دخلا إلى غرفة الانتظار، حتى قُدم لهما سريعاً فنجانان من الشاي الشديد الحلاوة لتجديد نشاطهما، وطلبت الممرضة التي قدمت الشاي لهم أن تعرف قدر الامكان عن خصوصيات براد. وكان آخر سؤال لها:

ـ وما دين الشاب؟

ما هذا السؤال المشؤوم، ومايدريهما ما دينه.. مع أن رالف قال انه متأكد، منطقياً، أن براد ليس كاثوليكياً..

بعد نصف ساعة، ظهر طبيب، لكن لا ليضع حداً لقلقهما بل لاعلامهما أن ساعات ستمر قبل أن يتأكدوا أن براد سينجو. وسأل رالف:

ـ ألا يجب اعلام أهله؟

ـ إذا كانوا في مجال الاتصال.. لكن لا أرى فائدة في تكديرهم، ربما دون ضرورة.. ظهراً، أو بعد الظهر، سنعرف بالتأكيد، سلباً أم إيجاباً.

وعادا إلى المركب في سيارة أجرة.

بعد الغداء عادا إلى المستشفى، وجلسا في غرفة الانتظار.. وهي جالسة تفكر اتجه بصرها إلى الرجل الجالس على الكرسي قرب النافذة.. الرجل الذي ولعدد من الأسابيع حتى الآن كانت تعيش معه في ظروف تحتوي درجة لا بأس بها من التقارب الحميم.. مع ذلك، ففي كثير من النواحي، لا يزال بالنسبة لها غريباً.. مجرد لغز.

باندفاع مفاجيء سألته:

ـ هل تفكر بالليدي آن؟

للحظات بدا ضائعاً في تفكيره، ولم يسمع كلامها.. ثم أدار رأسه لينظر إليها:

ـ أجل.. كنت أفكر بها.. كيف عرفت؟ اعتقد أن بيبي أخبرك عنها؟

ـ أخبرني القليل.. أكانت.. جميلة؟

أعاد النظر إلى النافذة:

ـ اقال لك انها كانت جميلة؟

أحست أنها تخطو في أرض خطرة.

ـ لا . . لكن بطريقة ما، استنتجت هذا.

ـ كانت جميلة . . لكن هذا لم يكن الميزة الوحيدة لها.

اعتقد ان معظم من عرفها، يتذكر أنها كانت محبة للحياة، وهذا ما جعل الصدمة كبيرة حين سمعنا أنها وضعت حداً لحياتها. هل اخبرك بيبي عن هذا؟

ـ ليس كثيراً. قال إنها ماتت، وأن موتها كان يمكن أن يكون الأفضل لذلك تساءلت ما إذا كانت انتحرت.

ـ لا . . كان غرقها حادثاً . . كان لديها مرض لا شفاء منه، كان سيستمر طويلاً مع الألم والبؤس لها، والتعاسة لمن يحبها. فاختارت الموت بهدوء في البحر.

وأدار رأسه إلى تينا ليجد عينيها مليئتين بالدموع:

ـ طفلتي العزيزة . . لا داعي للبكاء . . كانت امرأة عجوزا. وكان لها حياة طويلة وسعيدة. وكان هذا العمل المناسب بالنسبة لها . . .

شرقت بكلامها:

ـ أكانت . . عجوزاً؟

ـ ستة وسبعون عاماً. ولا بد أن السباحة اليومية هي التي ابقتها نحيلة وصحيحة الجسم من الخلف، حين يختفي شعرها لم تكن تبدو في الأربعين.

ـ ظننتها في الأربعين . . وظننت أنك كنت تحبها.

بدا عليه الذهول.

ـ وما الذي أعطاك هذه الفكرة؟ كانت جدتي. ولو كانت لا زالت حية لأرسلتك تعيشين تحت جناحها. ولكنتما اتفقتما معاً. فأنتما متشابهتان في كثير من الأشياء. في الواقع هذا سبب انني لم أرميك حين وجدتك متسللة . . مع أن أي رجل عاقل كان يجب أن يفعل هذا.

ـ الم تعد إلى أميركا ابدا؟

ـ بلى . . لكن حين قتل أبي في حادث، وجرحت أمي، عادت لتعتني بي وحين شفيت أمي تزوجت من رجل فرنسي من بلادها، ولها منه الآن ثلاثة أولاد. لكنها أصبحت ارملة الآن . . وحين اصبحت في سن المراهقة لم يعد هناك سبب لعودة جداي إلى البلاد، فوالدي كان الابن الوحيد لهما، ولا أحفاد غيري.

هنا . . دخل الطبيب قائلاً:

ـ السيد رومان استعاد وعيه، لكنه ضعيف جداً . . ستدخلكما الممرضة إليه.

قادتهما الممرضة عبر الممر الى عنبر جانبي . . كان براد مستقلياً على ظهره فوق سرير أبيض مرتفع. وجهه مستدير إلى الباب توقعاً . . وهما يدخلان قال بصوت كله ارتياح:

ـ لا زلتما هنا؟ قالوا لي انكما لا زلتما هنا . . لكنني لم أكن

واثقاً..

انحنى رالف نحوه:

- لن نتحرك من هنا إلا إذا تحسنت صحتك:

وقالت تينا:

- مسموح لنا أن نبقى دقيقة فقط.. يجب أن ترتاح براد. سنعود في الغد.. فلا تقلق.. سنراك قريباً.

وهما خارجان، شاهدا الطبيب فسأله رالف:

- ازال الخطر عن رومان الآن؟

- ارجو هذا. لكن هذا النوع من التسمم نادر، ولا نعرف الكثير عنه، والكثير يعتمد على بنية المريض.. وصديقكما كان في صحة جيدة حيث حدث هزاله.

سألت تينا:

- كم سيحتاج من وقت لاستعادة عافيته؟ أيمكن القول؟

- ليس بالضبط.. هل غيّر لكما مواعيدكما؟ هل مركبكما مؤجّر؟

رد رالف:

- لا.. انه لنا.. وبإمكاننا البقاء قدر ما هو ضروري.

وقال لتينا:

- يبدو أنني مضطر لنصحه بالعودة إلى بلده حال أن يتحسن. على كل الأحوال أنا مضطر إلى العودة إلى فرنسا..

أنت تعرفين أنني اعيش في باريس؟

- لا.. لم أكن أعرف.. لم تقل لي هذا من قبل.

- حين أكون هنا لا أفكر كثيراً بالأمر.. فهنا عالم آخر.. حياة اخرى.. كان لحياتي قسمان منفصلان دوماً.. منذ كنت في المدرسة.

- وماذا يحدث للسي وايف حين تتركها؟

- يأخذها بيبي، فهي ملك مشترك لنا. عادة يوصلني إلى أقرب جزيرة فيها مطار، ثم يبحر بها إلى جزيرته.. لكن هذه المرة سأتركها حيث يستطيع الوصول إليها لأخذها حين يستطيع.

في اليوم التالي ذهبت لوحدها لزيارة براد، وحين سألها عن رالف قالت:

- انه يرتب لي اوراقاً رسمية.. وليجد لي المساعدة حيث يمكن مساعدة من هم في وضعي للحصول على جواز سفر.

- لَمَ لا تقبلين المساعدة مني؟ لقد ساعدت في انقاذ حياتي.. وهذا اثمن بكثير من أجرة سفرك.

- لم أفعل الكثير، الفضل كله لبراعة رالف في الوصول إلى هنا بسرعة.. يا إلهي.. لقد سببت لنا الرعب.. لكنها ستكون قصة سفر رائعة حين تعود إلى بلدك!

مضى على وجود براد في المستشفى اسبوع الآن، ويبدا أنه

استعاد حالته الأصلية، إلا أن الطبيب لم يكن راضياً عن بعض الفحوصات. لكن بعد أيام، قال لها الطبيب إنه قادر على الخروج، لكن من الأفضل إيقاف سفره والعودة إلى بلاده. ليعاود إجراء نفس الفحوصات بعد ثلاثة أشهر، في حال كان للسم تأثيرات جانبية.

صباح خروجه جادل تينا ثانية في امر ذهابها معه حين رفضت قال:

- عديني بأن تكتبي لي لأعرف موعد وصولك إلى أميركا .سأقلق عليك إذا لم تفعلي.

في المطار قبّل رأسها وداعاً. وقالت لرالف حين ابتعد:

- سأشتاق إليه كثيراً.

رد ممازحاً:

- لا.. لن تشتاقي إليه.. فأنا معك.

وكم هو محق، فما أن طارت الطائرة حتى كان براد مجرد ذكرى.

الأيام القليلة التي امضتها مع رالف بعد هذا، كانت اسعد أيامها. كانت تستيقظ كل يوم مع التمني بيوم ذهبي طويل، تفعل فيه كل ما تحب أن تعمله.. مع الشخص الذي تحبه أكثر ما تحب. كل ليلة تذهب إلى الفراش تحس أن عليها قضاء كل الليل معاً..

أحست بالأسى حين وصلا الجزيرة التي يلتقي فيها رالف وبيبي عادة، ومن حيث يأخذ بيبي السفينة إلى جزيرته. واستقبلهما رجلان من أقرباء بيبي، أعطى أحدهما رسالة منه لرالف، فقرأ قسماً منها لتينا:

«هناك مجال لإقامة تينا الصغيرة هنا مع قرلي إذا أرادت. ولا أظنها ستسعد في أوروبا أو أميركا. ومع أن والداها أميركيان إلا أنها تنتمي إلى هنا.. في جزر الكاريبي».

وقال لها رالف:

- أظن هذا اقتراح ممتاز.. فما رأيك؟

- أنا.. لست ادري. لطف من بيبي أن يعرض علي مقاماً. لكن ماذا استطيع أن أفعل هناك؟

- اعتقد أن عملاً محدداً يمكن أن يوجد لك.

- أتظن أن عليّ القبول؟

هز كتفيه:

- ليس أمامك الكثير من الخيارات.. أليس كذلك؟

- واحد فقط.. يمكنك أخذي معك.. لا بد تعرف كم تعجبني وأظنني اعجبك قليلاً.

- وهل القليل يكفيك.. تينا؟

بما أنها وجدت الشجاعة لتصرّح عما في نفسها، لم تعد تجد صعوبة في الدفاع عما تريد... كانا لوحدهما في قمرة

القيادة، ابنا عم بيبي، ذهبا لاحضار أغراضهما من حيث كانا يقيمان منذ وصولهما الجزيرة. فوقفت من مقعدها قبالته، وتقدمت نحوه، غير عابئة ما إذا كان احد من المراكب المجاورة ينظر إليهما.. وامسكت رأسه تتلاعب بشعره الأسود الطويل، الناعم الكثيف بقدر ما هو عليه شعرها الحريري الأشقر.. وقالت:

- أي شيء يكفيني منك.. رالف.

بدا عليه الغضب وهو يجذبها بين ذراعيه ويخشونة.. فأغمضت عينيها بسعادة وهي تعتقد أنها كسبته.. العناق أكد لها أنه يجدها مرغوبة.. لكن هذا لم يسوّي الأمور.. فقد أبعدها وقال بخشونة:

- انت تقولين هذا الآن.. لكنني أتساءل إذا كنت تعنين ما تقولين حقاً. ماذا لو أردت أنهاء علاقتي معك، بعد شهر أو اثنين؟ ماذا ستفعلين يومها تينا؟

- سأكون في أتم سعادة لشهر أو اثنين.. أو طالما أنت سعيد معي.. أما فيما بعد.. بإمكاني العودة إلى أميركا لأدرس في مدرسة للفنون.. أرجوك رالف.. لا تجعلني أقبل بالبقاء هنا، خذني معك. لن أزعجك.. اعدك!

- أتدركين أنك لا تعرفين شيئاً عني؟

- أعرف الأشياء المهمة.

- أتعرفينها؟ أشك في هذا. لكن ايكفيك ما تعرفينه لالزام نفسك برجل؟

- لم أطلب منك أي التزام.. أعطيتك وعدي أن لا أزعجك.

- يا فتاتي العزيزة، لا يمكنك الوعد بهذا أكثر مما استطيع الوعد بأنني لن أمل منك.

- هل أنت دائماً من يضع الحد لعلاقاتك؟ ألم تقل لك امرأة من قبل أن ما بينكما انتهى؟

- لم يكن الأمر يوماً بهذا الجفاء والبعد.. لكن أجل، أنا في العادة من يمل بسرعة.

- قالت لي اماليا أن الرجال لا يهمهم سوى سعادتهم.. وأن المرأة لا يهمها بشاعة الرجل أو وسامته بعد أن تغمض عينيها.. المهم كيف يعاملها.

- اقالت لك هذا؟ ربما تودين رؤية نموذج عن كفائتي.

بلمعان غريب في عينيه، احتواها بين ذراعيه، وأخذ يمرر يده على خصرها ثم ظهرها. وبضربات كسولة وصلت يده إلى عنقها، حيث توقف، ليجذب رأسها إلى الأمام ويدفنه في صدره.. فأحست بالدوار. ولم يعد بإمكانها إخفاء اضطرابها لملامسته، وهي ترتجف، تتنفس دون انتظام شاهقة، توقعت منه أن يمازحها حول حالتها.

لكن النظرة النارية كانت قد تلاشت من عينيه حين ابتعد عنها.. وقال فجأة:

- اعتقد أنني سأندم فيما بعد.. لكنني.. سآخذك معي.

عادت إلى عناقه:

- اوه رالف.. اتعني هذا حقاً؟

رد ممازحاً:

- كفي عن العناق.. فالباقي يجب أن ينتظر إلى أن ننهي ترتيبات السفر.. تعالي، لنرى ماذا يمكن لنا أن نحضّر.

بعد دقائق، كان يمسك بيدها يجرها خلفه فوق الرصيف وهي تتبعه بسعادة، تنطنط لتلحق خطواته الواسعة.

ولم يعد يهم تينا إلى أي حياة يقودها رالف، أو إلى متى ستستمر.. فالتمتع بالحب بين ذراعيه، بدا لها تعويضاً عن كل بؤسها.

* * *

- ٥ -

لا يا حبيبي!

في البداية.. السفر بالطائرة إلى فرنسا كان له نوعية حالمة غريبة. لم تصدق أنها في طريقها إلى أوروبا، ومع من تحب. قرأ رالف، أو نام، إلى أن وصلا إلى أول محطة مهمة في ميامي، بينما كان نائماً كانت تتمتع بالتطلع إلى وجهه، الذي بدا لها أنه يعكس خصائص تتمناها كل امرأة في الرجل: القوة في الشخصية في فكه المربع وذقنه القوية، الكرم واللطف في شكل فمه، الذكاء في عرض جبينه، والمرح المحفور في خطوط حول عينيه.

كانت تعلم أنهما سيقضيان ليلة على ساحل اميركا حين يصلا إلى نيويورك، حيث محطتهما الأخيرة قبل الانطلاق إلى

www.elromancia.com

باريس.

في التاكسي من المطار إلى الفندق، قال لها:

ـ أنا أقيم دائماً في نفس الفندق، وأتناول الطعام في مطعم صنيي مع صديق لي من أيام الدراسة.. إنه متزوج من أميركية.. لكنني مبكر عن زيارتي العادية هذه السنة. والفندق يمكن أن يكون ممتلئاً، وعلى الأرجح سام وبيتي مشغولان الليلة، لكنني مضطر للاتصال بهما.

في الفندق طلب جناحا، لكن الموظف قال:

ـ آسف يا سيد سومرز.. أخشى أن لا استطيع تلبية طلبك. قد أعطيك غرفتين منفصلتين قريبتين من بعضهما.

فكر رالف قليلاً ثم قال:

ـ إذا كانت غرفكم كلها محجوزة، فلا بد أن بقية الفنادق مشغولة مثلكم.. سنقبل بغرفتين منفصلتين.

ترك رالف تينا في غرفتها الصغيرة المريحة، ودخل غرفته ليفتح بعد قليل الباب المشترك بينهما، وعاد إلى غرفتها.

ـ سأطلب القهوة أولاً، ثم سأتصل بسام وزوجته، بعدها سأستحم.

اتصل بالمقهى ليطلب القهوة ثم طلب من الاستعلامات أن تؤمن له مخابرة خارجية وجلس إلى حافة سرير تينا بانتظار المخابرة، بينما جلست هي على مقعد وتير قرب النافذة تفكر

بالليلة التي ستمضيها معه هنا.. لطالما حلمت أن تكون أول تجربة لها معه تحت غطاء النجوم في العراء، وصوت البحر يدمدم عند الشاطيء. لكن الرجل نفسه من يؤثر.. وليس المكان.. مع ذلك لم تستطع إلا أن تندم على الليالي التي اضاعتها هدراً فوق السي وايف، أو مكان ما، على جزيرة ما، حيث الراحة والهدوء.

وهي تحاول ابعاد خيبتها، وتوقعها معاً، لم تلاحظ أن رالف اتصل بصديقيه إلا بعد أن وضع السماعة من يده وقال:

ـ ستتناول العشاء في مطعم «لاشين». لم استطع الخلاص منهما. إنهما زوجان رائعان.. ستحبينهما. ولا حاجة لأن نتأخر في السهر.

وصلا إلى المطعم قبل صديقيه بقليل، ثم التحق بهما رجل اشقر الشعر أقصر من رالف بقليل، ومعه امرأة جميلة حمراء الشعر.. وقدمهما رالف:

ـ هذه تينا تايلور.. إنها ذاهبة معي إلى باريس.

في الواقع، لم يكونا مهتمين بنشاط رالف في الكاريبي بقدر ما اهتما بسرد التغييرات الكثيرة التي حدثت في حياتهما. سام تلقى ترقية في عمله ستمكنه من الاستغناء عن الشقة والسكن في منزل مستقل في الضواحي، بينما بيتي تنهي العمل في انذار تركها للعمل، لأنها حامل في الشهر الخامس،

وهي تنوي التفرغ لبيتها وطفلها.

بعد العشاء توجهت تينا مع المرأة إلى الحمام لغسل اليدين والانتعاش، وكانت تنتظر خروج المرأة من الحمام حين سمعت صوت الرجلين عبر الجدار الرقيق الفاصل بين حمام النساء وحمام الرجال، وقال سام:

- إنها حورية رائعة التقطها هذه المرة رالف.. ولست أدري من أين تلتقطهن. صحيح انني لا أحسدك.. إذ عليك تجربة الزواج يا صديقي، إنه أفضل من أية مغامرة لأعزب.

وبرزت بيتي من الحمام:

- مؤسف أن لا تتمكني من البقاء هنا تينا. كنت أود أن أريك بيتنا الجديد.. لكن في مثل سنك قد لا يعجبك تحضير البيوت وترتيبها.. لا يزال أمامك وقت للمرح.

مرت دقائق من عودتهما إلى الطاولة قبل أن ينضم إليهما الرجلين.. ولاحظت تينا أن القلق يبدو على سام.. لا بد أنه سمع صوت زوجته عبر الجدار، وعرف أن تينا لا بد سمعت ما قاله عنها.

حين ودع الجميع بعضهم، وابتعد الزوجان سيراً على الأقدام يدا بيد قال رالف:

- سنسير نحن كذلك.. اترغبين في هذا؟

في الطريق إلى الفندق، مرا بعدة واجهات لمحلات ضخمة

مما جعل تينا تصيح اعجاباً، ونسيت غضبها لما سمعته عنها، أمام ذهولها بالمعروضات. وسألته بعد عدة دقائق:

- هل أؤخرك؟

- لسنا مستعجلان، مع انني اعرف أن المحلات في باريس ستعجبك أكثر.

- صحيح..؟ لا بد أنها رائعة إذا كانت افضل من هذه.

امسك بذراعها فوق المرفق ليقطعا الشارع، وسرها أن يقودها، فلن تتمكن أن تفعل هذا لوحدها في وجه هذه السيارات المستعدة للانطلاق لحظة تغيير الإشارة.. حين وصلا الجهة الأخرى، دست ذراعها بذراعه ونظرت إليه مبتسمة:

- كانت وجبة لذيذة رالف. تناولت الطعام الصيني من قبل.. لكن ليس بهذه الجودة.

- أنا مسرور لاعجابك به.

وشد على ذراعها، فتمنت لو تعرف شيئاً تقوله لتسعده، فلن يكون من الجيد لها لو أنه بدا يضجر منها منذ الآن.

وصلا الفندق، وصعدا المصعد مع شخصين غرفتيهما في الطابق الأعلى، حياهما رالف بأدب وهو يلحق بتينا إلى الممر.

أخذ قلبها يخفق بشدة وهي تقطع الغرفة وتفتح ستائر النافذة، وتتفرج على أنوار المدينة، تحس به في مكان ما

خلفها. فتوقعت أن يتقدم ليلف ذراعيه حولها، لكنها دهشت حين سمعت الباب المشترك ينفتح:

- تينا.

التفتت بخجل تنظر إليه.. كان يقف عند الباب بين الغرفتين، يفك عقدة المنديل الحريري الذي يملأ فراغ ياقة قميصه، حين ابعدها كشف عن بشرته السمراء وعضلات عنقه القوية. وقال:

- امامنا سفر طويل في الغد.. لذلك سأقول لك الليلة، تصبحين على خير.. ولا تقلقي أن نغط في النوم، سأبلغ الاستعلامات أن تصحينا باكراً.

بعد لحظة أقفل الباب وتركها لوحدها.

استيقظت صباحاً وهو يهزها بلطف، وقال:

- طلبت الفطار لاثنين في غرفتي بعد نصف ساعة، أمامك اذن وقت يكفي لحمام كسول.

وتركها ليعود إلى غرفته.

بالرغم من جهوزها قبل النصف ساعة، إلا أنها انتظرت إلى أن سمعت صوت عربة الطعام تصل لتدخل وسألها:

- كيف نمت؟

- جيد جداً.. شكراً.. وأنت؟

ردها كان كذبة بيضاء. فقد فتحت الستائر قبل أن تنام

ويقيت لفترة طويلة تقف عند النافذة تتفرج على منظر المدينة محتارة تتساءل عن سبب ترك رالف لها. وحين نامت، نامت مضطربة يقطعه أحلام مزعجة.

وجدت المرحلة التالية من الرحلة أقل إثارة، وأكثر تعباً من الأولى.. وكانت قد بدأت تكوّن فكرة بأن الحياة في أميركا وأوروبا حياة عجلة وسرعة، وبدون وجود رالف معها لحمايتها، فلن تستطيع العيشُ أبداً.

وكأنه أحس بما يعتمر في نفسها، فابتسم قائلاً:

- لا تقلقي.. ليست الحياة العصرية كلها هكذا.. لا زال هناك جيوب هدوء وأمان في أوروبا. وستعتادين على هذا الجنون.

حين انتهت رحلتهم في باريس، وصعدا في سيارة اجرة، كانت متعبة لدرجة أن اسندت رأسها إلى كتفه، واستغرقت في النوم، وهكذا لم تشاهد شيئاً من العاصمة الفرنسية إلى أن سمعته:

- تينا.. استيقظي. كدنا نصل.

وجدت نفسها في شارع جانبي بعيد، البنايات المرتفعة على كلا الجانبين، وتوقفت السيارة بهما خارج بابين ضخمين مزدوجين. خرج رالف ليشد مقبض جرس عتيق الطراز، قبل أن يعود ليدفع اجرة التاكسي. كانت حقائبها على الرصيف

والسيارة تبتعد حين فتح باب صغير في أحد الأبواب الضخمة وظهر رجل عجوز نظر إليهما لحظات قبل أن يصيح بالفرنسية:

- مسيو رالف! لم نكن نتوقعك قبل اسبوعين.. ما الذي جاء بك باكراً؟ معك ضيفة.. تفضلا.. تفضلا.

اشار رالف لتينا أن تسبقه عبر الباب الصغير، لتجد نفسها في نوع من الانفاق وأبواب في الجدران إلى اليمين واليسار، وغرفة من فوق. خلف النفق فسحة كبيرة معتمة حيث لمس الحارس ازراراً ليكشف الضوء عن فناء لمنزل كبير. ومن خلال الحديث بين الرجلين تصورت تينا أن يكون منزل رالف برجاً سكنياً حديثاً.. فالتفتت إليه تسأل:

- اتعيش هنا؟

- لا.. فهذا منزل زوج أمي الذي تفضله على منزلي الريفي.

التفت إلى العجوز يسأله سؤالاً بالفرنسية سؤالاً فهمته تينا كما فهمت الرد وقال لها رالف:

- العائلة كلها في الخارج الآن. لن تقابلي أحداً منها قبل الغد.

فسألته:

- لماذا جئنا إلى هنا بدلاً من شقتك؟

نظر إليها وتعابير وجهه ملغزة في الضوء القاتم نسبياً..

- لأني قررت أن من الأفضل أن اجعل منك امرأة شريفة، والخطوة الأساسية لهذا أن أقدمك لأمي.

نظرت تينا إليه مذهولة، غير قادرة على تصديق ما سمعته يقول. وأضيء المنزل من الداخل. وانفتح الباب الرئيسي وبرز منه عدة أشخاص واسرعوا نحوهما محيين رالف بنفس الدهشة والسعادة التي اظهرها الرجل له. ووجدت تينا نفسها ترحب بها امرأة حسنة قدمها لها على أنها مدام كوسيت، مدبرة منزل أمه. وقالت المرأة:

- لَمْ لم تبرق لنا مسيو.. على كل تجهيز غرفة للمدموزيل لن يستغرق سوى خمس دقائق.. يا للمسكينة! تبدو متعبة.. حمام ساخن وعشاء خفيف كل ما ستحتاجه.. والسيدة كوستيم لن تعود قبل منتصف الليل وستكون المدموزيل نائمة، هذا ما يبدو عليها.

دخل الجميع الآن إلى ردهة انيقة حيث قال رالف بالفرنسية:

- اجل.. كانت رحلة طويلة متعبة لها. وهي ليست معتادة على السفر بالجو.

والتفت لها ليقول بالانكليزية:

- كما قالت كوسيت، تبدين منهكة، اذهبي معها،

واستحمي بمياه ساخنة . . وحين تستقرين في الفراش سأجيء لأتمنى لك ليلة سعيدة .

حين استلقت في المياه الساخنة للمغطس، المعطرّ والملوّن بحفنة من الصابون الأخضر، كانت السيدة تعد لها السرير في الغرفة الملاصقة . . وأخذت تفكر بمعنى كلمة أن يجعل منها امرأة شريفة . . أيمكن أن يقصد المعنى المعروف من الكلمة؟

قالت مدبرة المنزل بالانكليزية :

- يبدو أنه ليس معك ثوب نوم مدموزيل . . لذلك استعرت لك ثوباً من عند المدموزيل لوسي .

ومدت يدها تحمل المنشفة لتلف بها تينا وتخرجها من المغطس .

- اجلسي الآن لأجفف لك قدماك .

سألتها تينا :

- تتكلمين الانكليزية جيداً مدام .

واستسلمت وكأنها في حلم لتجفيف قدميها ووضع البودرة عليهما .

وأجابت السيدة :

- كنت في خدمة السيد كوستيم في أميركا يوم كانت زوجة لوالد السيد رالف .

- ومن هي المدموزيل لوسي؟

سألت وقميص رقيق شفاف ينسدل من فوق رأسها إلى جسدها .

- إنها اصغر الشقيقتين، بنات السيدة كوستيم . إنها من نفس سنك . في التاسعة عشر . ولأجل العشاء اقترح عليك أومليت أو ايرب . . أي بيض مقلي مع المقبلات .

كانت تينا لوحدها تستمتع بآخر لقمة من البيض اللذيذ المقلي بالزبدة، وتتجرع آخر ما في كوبها من عصير، حين فتح باب غرفتها ودخل رالف متسائلاً :

- هل اراحوك؟

- اوه . . اجل . . اشعر أنني اميرة . حتى أن السيدة كوسيت اصرت على تجفيف قدمي، وتمشيط شعري .

- جيد . . بامكانك الاستفادة من بعض الدلال .

احست تينا بالإثارة لكلامه، وعلمت أنها بدأت تحمّر تحت نظرة التقييم الصريحة التي يطلقها على جسدها . وسألته :

- رالف . . ماذا عنيت بالضبط بأن تجعل مني امرأة شريفة؟

- الم تسمعي هذا التعبير من قبل؟ انه يعني الزواج . . لن تمانعي بأن تكوني زوجتي بدلاً من صديقتي . . أليس كذلك؟

قبل أن ترد انحنى يقبل رأسها، لكن بطريقة جعلت موجات طويلة لذيذة من القشعريرة تشمل كل عصب من أعصابها من الرأس إلى أخمص القدم . . وقال :

www.elromancia.com

- لا . . لا أظن تمانعين . . ومن الأفضل أن اذهب الآن، وإلا فلن ينام أحد منا . . وانت بحاجة لنوم مريح كي تبقي منتعشة في الغد.

وقف ثم تقدم إلى جانب الدير ليلتقط الصينية، ويطفيء المصباح . . طيف قاتم تجاه نور القمر المتسلل من النافذة، وقف بالباب ليقول:

- بون نوي . . ما پوتيت.

وتركها.

حين استيقظت في الصباح كان شعاع ساطع من الشمس قد حل مكان نور القمر الخفيف . . ولدقائق، بقيت مسترخية في فخامة وراحة الفراش العريض، مع الوعد بيوم رائع، بدلاً من يوم رمادي رطب كما كانت تتوقع أن ترى في أوروبا.

خرجت من السرير وتقدمت لتفتح الستائر عن النافذة الأخرى. ولدهشتها لم تطل النافذة على الفناء الذي شاهدته الليلة الفائتة. بل على حديقة كبيرة لها مرج عريض وفيها عدة أشجار باسقة.

وهي تتطلع من النافذة، قرع الباب فاستدارت . . واطل وجه جميل لينظر بداية إلى السرير الفارغ ثم:

- اوه . . لقد استيقظت. صباح الخير . . هل لي أن أدخل؟ أنا لوسي. هل أخبرك رالف عني؟

- لا . . لكن السيدة كوسيت فعلت، حين اتتني بثوب نوم من عندك.

ارجو أن لا تكوني ممانعة بارتدائي له.

وتقدمت الفتاة لتصافحها قائلة:

- بالطبع لا . . وأنا مسرورة لاستيقاظك باكراً . . اريد معرفة كل شيء عنك . . كدت لا أنام من الفضول، رالف لم يقل لنا شيئاً سوى أنكما ستتزوجان. وانك لم تزوري أوروبا من قبل. ولهذا سيكون كل شيء هنا غريباً عليك . . لم تلبسي خاتم الخطوبة بعد . . أنتما اذن لستما مخطوبان منذ مدة طويلة؟

جلست لوسي، واضح أنها تنتظر تفاصيلاً لم يعطها لها شقيقها الأكبر. وردت تينا:

- لا . . ليس من وقت طويل.

- اخبريني أولاً كيف التقيتما.

مثل رالف، كان لها شعر أسود وعينان سوداوان، لكن لا شبه آخر بينهما . . وأجابت تينا على اسئلتها بصدق، لكنها تجنبت تفاصيل احست أنها لن يوافق عليها الناس ممن لا يعرفون نظام الحياة في الكاريبي، بقدر ما تجهل هي أوروبا، ولم تذكر تسللها إلى المركب.

- إذن انت وحيدة في العالم؟

- اجل.

- كم ستندهش أمي حين تراك. لست من النوع الذي توقعنا أن يتزوج منه رالف.

- ومن توقعتم؟

- اوه.. امرأة تجعله مرتاحاً في حياته المنزلية. وتنجب له الكثير من الأولاد، ولا تفتعل له المشاكل لو استمر في علاقات سرية مع النساء، ولم نتوقع أبداً أن يتزوج للحب.. فالنساء دائماً هن من يقع في حبه خاصة بعد أن أخذ يظهر على التلفزيون. وحسبما أعرف لم يحب أحداً من قبل.

وهل يحب الآن؟ تينا لا زالت تشك.

- لم يقل لي شيئاً عن ظهوره على التلفزيون.

- حسناً، لم يبدو أن هذا قد ادار له رأسه كثيراً.. وأظنه يعتبر الدعاية ازعاجاً.. لكنهم يدفعون له أجراً جيداً. والمال يساعده على تحويل رحلاته.. فهو لا يملك دخلاً خاصاً. ما عدا مرتبه من الجامعة، ومدخول صغير من ارث جدته الأميركية.. وهذا بالكاد يكفيه لصيانة المركب الذي تركته له.

- وماذا يفعل في التلفزيون؟

- بدأ الأمر ببرنامج للمدارس اعجب المنتجين، فدعوه لتنفيذ برامج مماثلة للكبار.. ثم اصبح ضيفاً في برنامج «الرأي الحر» وهو يظهر فيه الآن بانتظام.. وهل أنت جائعة؟ أتودين الفطار؟ نحن دائماً نتناول الفطار في غرفنا.. أنا آخذ فقط

القهوة دون سكر أو حليب...لكن ربما ترغبين في أكثر من هذا؟ أما رالف فيتناول وجبة كاملة، كما لا بد تعرفين.

استجابة لاتصال لوسي بالمطبخ عبر الهاتف الداخلي، جاءت خادمة بصينية وسلة كرواسان طازجة، مربى الخوخ، زبدة، وإبريقان من القهوة والحليب.. الزبدة والمربى كما علمت تينا جاءت من مزرعتهم الريفية، شقيق لوسي يعيش هناك مع عروسه، بينما شقيقتهما الكبرى لودي تمضي عطلة في اسبانيا. وقالت لها لوسي:

- فلذا ليس امامك اليوم سوى أمي وأنا لتتعرفي علينا.

- وهل المدام.. مرهبة؟

- ماما.. مرهبة؟ اوه لا بالعكس تماماً.. لا حاجة لك أن تحسي بالتوتر منها.

في هذه اللحظة دق الباب ثانية، فنادت لوسي:

- أنتري.

ودخل رالف:

- اه.. اختي الصغيرة الحشورة قدمت نفسها.. كيف نمت إلى أن ازعجتك تينا؟

- نمت جيداً.. شكراً لك، لكن لوسي لم تزعجني. كنت مستيقظة حين دخلت.. وكيف كان نومك؟

قبل أن يرد، قفزت لوسي قائلة:

- اعتقد أنكما تودان أن تبقيا لوحدكما. إذا كانت ماما صاحية، سأوصل لها الخبر السعيد.. أم تريد اخبارها بنفسك رالف؟

- لا.. اخبريها أنت.. لكنني أشك أن تكون صاحية، فهي لم تكن قد عادت من الخارج حين آويت للفراش ليلة أمس.

حين غادرت شقيقته قال:

- سأذهب إلى شقتي اليوم لأرى إذا كان هناك بريد يحتاج العناية الفورية بعد أن تقابلي أمي، أظن أن عليك ترتيب نفسك بثياب لائقة. ستأخذك لوسي للشراء، وبإمكانك الاعتماد على نصيحتها، فلها ذوق سليم في الملابس.. ثم يجب أن نهتم بأمر خاتم الخطبة. جدتي تركت لي معظم جواهرها. وبينها خاتم بحجر كريم رائع.. ولو أنه قديم الطراز.. سنحضره من المصرف ونأخذه إلى جواهري أمي لتنتقي تصحيحات حديثة. ومع أن هذه أمر عادي هنا، إلا أنني لن ارتدي خاتماً.

- ومتى الزواج؟

- في أسرع وقت ممكن.. أليس هذا من رأيك؟ هل ترغبين في ثوب أبيض والزينة..؟

هزت رأسها نفياً، ففي الواقع لم تفكر بالمراسم بعد.. واقع أنه يريد الزواج منها لا زال أمراً صعب التقبل. وجلس

قرب الطاولة التي وضعت الخادمة عليها صينية الطعام، وأخذ قطعة الكرواسان الباقية وأخذ يقضمها.. فاتجهت تينا إلى طاولة الزينة لتمشط شعرها، وهي تعلم أن انعكاس النور من النافذة خلفها سيكشف المزيد منها عبر غلالة النوم نظرت إلى صورته في المرآة فوجدته يملأ فنجان قهوة.. ولكي تجذب انتباهه، قالت:

- أين ستعيش بعد الزواج؟ في شقتك؟

- في الوقت الحاضر.. لكن بعد أن تستقري سنجد لنا منزلاً كبيراً، ربما خارج المدينة، إذا وجدت أن الحياة هنا لا تعجبك.

- أليس ملائماً لك أكثر السكن في المدينة.. قالت لوسي إنك تعمل في الجامعة.. ماذا تفعل هناك؟

- اعلّم التاريخ.

كان هذا آخر ما تصورت أن يعمل به.

- حقاً؟

اكمل شرب فنجانه ثم نظر إلى ساعته ووقف:

- يجب أن اذهب.. ومن الأفضل أن تستحمي وترتدي ملابسك إذا كنت ستخرجين مع لوسي للشراء بعد مقابلة أمي.

- الن تقدمني لها؟

- كنت سأقدمك لها لو كانت شرسة.. لكنها ليست كذلك.. على الأقل ليس بالنسبة لعروسي.. ما كان سيعجبها لو أن اليان واجهها بأمر واقع.. لكن اختياري لزوجة أمر آخر.. إنه أمر لا يعني أحد سواي.

- ألا يمكن أن أجيء معك إلى الشقة وأقابل أمك فيما بعد؟

- لا.. فهذا سيغضبها.. حين تستيقظ ستكون نافذة الصبر لرؤيتك كما كانت لوسي. سأعود وقت الغداء.

لم تصدق تينا أنه سيغادر الغرفة دون أن يلمسها.. معظم الرجال في أول يوم لخطبتهم، سيتحينون أول الفرص لضم ومداعبة خطيباتهم!

قبل أن يخرج التفت إليها:

- على فكرة.. اطلبي من لوسي أن تعيرك روب نوم، واشتري لنفسك واحداً. فكما أنت الآن، بإمكانك أغراء قديس.. وليس من المعروف عني أنني ناسك.

تقدم منها بسرعة ليقبل رأسها، وخرج.

أول نظرة لتينا إلى حماتها المستقبلية، اعطتها صورة مكبرة عن لوسي، كانت تجلس في سرير عريض، جميل المفارش ترتدي روباً بلون اللازورد القاتم فوق ثوب النوم، ورسائل الدعوات مبعثرة على الفراش.

- يا طفلتي العزيزة، أهلاً بك بكل حرارة.

واضح أن السيدة لم تكن منزعجة لتقديم عروس ابنها الأكبر لها دون سابق انذار. ولم يبدو لعيناها الجميلتان الارهاق، واكملت:

- اووه.. انت جميلة، شعرك، لونك، بشرتك، كلك جميلة.

وامسكت بيد تينا وجعلتها تجلس قربها على السرير.

- اخبرتني لوسي بقصتك. ومن الطبيعي أن بداية حياتك هنا، ستكون مختلفة عن الحياة التي اعتدت عليها.. لكننا نأمل أن لا يطول الأمر قبل أن تتعودي على حياتنا.. وسنقوم جميعاً بما في وسعنا لمساعدتك.

- شكراً لك مدام.. أنت لطيفة جداً. لكنني سأكون سعيدة في أي مكان طالما رالف موجود فيه.

- آه.. أرى أنك تحبينه بعمق.. منذ زمن طويل أحببت أباه بنفس القدر، صحيح أن رالف لا يشبهه كثيراً، لكن له سحر سومرز.. جده الأميركي.. كان فاتناً وهو في السابعة عشرة. أول زواج لي لم يكن ناجحاً، لكنني آمل أن يكون زواجك سعيداً طويل الأمد، كما كان زواج الليدي آن من جد رالف.. لا بد أن رالف أخبرك تاريخ اسرته.

- لا.. مدام. لم يقل الكثير. ولا اعرف شيئاً عن تاريخ

عائلته. ولو عرفت كل هذا، لما جئت معه.. فتاريخ عائلتي مختلف تماماً.

- في الزواج، النجاح يعتمد على الانسجام في الطباع لا على الانسجام في التاريخ العائلي. اكتشفت هذا مع والد رالف.. التقيت به في ظروف بعيدة عن حياتينا العاديتين. ولم تبدو اسرتينا متوافقتان.. واكتشفنا بعد فوات الأوان الهوة بين وجهات نظرنا.. فهو يضجر ويقلق لحياة المدن، وأنا أضجر من حياة الريف. أنا أسعد فقط في باريس أو لندن أو نيويورك. أما السكن في قرية صغيرة مملة، وهذا ما كان يفضله، كان مستحيلاً عليّ. لكن زواجنا لم يدم طويلاً، فوالد رالف قتل في حادث، وبعد قليل تزوجت من الرجل الذي كانت اسرتي قد اختارته لي أصلاً.

قالت لوسي فيما بعد، تسرّ لتينا:

- في الواقع اعتقد أن «ماما» سعيدة أكثر دون زوج.. بابا كان غيوراً رهيباً من كل المعجبين بها. ولا أظنه سامحها أبداً لزواجها من والد رالف قبله. واعرف أنه لم يكن يحب رالف. سمعت عمتي تتحدث بالأمر، وتقول أن من الأفضل أن لا يعيش معنا.

حين عادت الفتاتان من التسوق، عرفتا أن رالف اتصل هاتفياً ليقول إنه لن يعود قبل المساء.. قالت لوسي لأمها

بالفرنسية:

- ربما ذهب ليودع لورا.

فرمقتها أمها بنظرة زاجرة، وتظاهرت تينا أنها لم تفهم شيئاً مما يدور.. واتفقت الفتاتان أن تأخذها لوسي إلى مزين الشعر ليقص شعرها الطويل بعد الظهر، وهكذا حين عاد رالف في المساء كانت خصلاتها الطويلة قد تبدلت إلى هالة ناعمة قصيرة. وكانت ردة فعل رالف حين شاهدها:

- يا إلهي! ماذا فعلوا بك؟

- ألم.. يعجبك؟

- لا.. لم يعجبني.. أحببت شعرك كما كان. ولا يعجبني أن تضعي الأحمر على اصابعك.

- سأزيله فوراً..

غادرت تينا الغرفة تكاد تبكي. فهي كذلك لم يعجبها شعرها.. استعارت بعضاً من مزيل الدهان ونزعت الأحمر عن أظافرها.. وأخذت تغسل يديها في الحمام، فسمعت باب الغرفة يفتح ودخل رالف غرفة النوم، فمسحت دموعها بسرعة، وبدأت تجفف يديها. كانت لا تزال تفعل حين وصل خلفها ووضع يداه على كتفيها.

- لقد اسرعت لوسي إلى تحت لتؤنبني على جرحي لمشاعرك..

أنا آسف صغيرتي.. إذا كنت تودين دهن اظافرك بالأحمر فافعلي.. كان عليّ أن أعرف أنه لن يطول الوقت حتى تبدأي بالرغبة في العيش كما تعيش الفتيات الأخريات هنا.. لكن..

قاطعته:

- لا.. لا. لا أريد هذا.. لكنني اعتقدت أنك قد ترغب في رؤيتي كفتاة فرنسية.. لكنك لا تريد؟

- ليس بالتأكيد. فأنا أحب الشعر الطويل. لكن الأمر لم يعد مهماً. لكنني صدمت لاضطراري إلى وداع حورية بحر، وأعود إلى المنزل لأجدها قصت شعرها بهذه الدرجة.

- سأعيد تربيته إذن.

وعادت الدموع إلى عينيها.. لكي تخفيها، رمت بنفسها عليه، وقالت بصوت مخنوق:

- لا اهتم كيف يكون شكلي، طالما أرضيك.. أوه رالف.. أحبك كثيراً!

ضمها إليه وداعبها.. لكنه لم يقل لها انه يحس بنفس المشاعر نحوها..

كان قد احضر كل جواهر جدته من خزانة المصرف.. وجدت بينها حجراً مربعاً من الزبرجد ذكرها لونه بلون مياه البحر الضحلة. السيدة وابنتها توقعتا أن تنتقي الألماس لخاتم

خطوبتها، وأن ترتدي الحجر الأقل ثمناً للزينة فقط. لكنها فضلت الزبرجد وتركها رالف تفعل ما تريد.

تلك الليلة، استلقت في الفراش تقلب يدها ذات اليمين وذات اليسار كي تنظر إلى لمعان الحجر القاتم أمام ضوء المصباح. لكن مع أنه يمثل رباطاً لم تكن لتجرؤ، منذ أيام أن تحلم به، إلا أنها لم تشعر بالسعادة الغامرة.. فهي لم تستطع أن تنسى أن رالف لم يذكر حبه لها.. ولا أن تقنع نفسها أنها الآن، إذا بدا، الزوجة المناسبة له.

بدلاً من أن يجيء شقيقه إلى باريس للتعرف إليها. ذهبوا في اليوم التالي إلى قصر العائلة لقضاء نهاية الاسبوع مع اليان وعروسه ايزابيل..

العروس الشابة، والتي تنتظر مولوداً، جعلت تينا تحس أكثر بأنها مختلفة عن أفراد العائلة.. ولكونها ابنة مالك أراض مجاورة فقد تربت كي تملأ مركزها الحالي كسيدة لأملاك واسعة.. لكنها واليان، وفي الواقع الجميع، بذلت جهدها لتجعل تينا مرتاحة، تحدثوا الانكليزية طوال الوقت، وسألتها ايزابيل عن الحياة في الكاريبي.. لكن حين توجه الحديث إلى قنوات خاصة بالعائلة لم تستطع إلا أن تشعر بالإبعاد.

خلال العطلة سألها رالف:

- بالمناسبة، ألم تعدي براد أن تبلغيه باخبارك؟ لماذا لا

تتصلي به الآن؟

- لست معتادة على الهاتف، وأظن الأفضل أن أكتب إليه.

فيما بعد ذلك اليوم، كتبت له، ووضعت عنوانها في باريس ورقم الهاتف، في حال اراد الاتصال بها.. وقبل العودة إلى باريس اتفق الجميع أن افضل موعد للزفاف سيكون يوم الأربعاء من الأسبوع الذي يلي المقبل. حيث تكون لودي قد عادت من رحلتها إلى اسبانيا.. وهذا سيوفر لهما شهر عسل قصير، قبل بدء الفصل الخريفي للدراسة في الجامعة.. لكنه وعدها أنهما في فرصة الميلاد سيحصلا على شهر عسل آخر.. وقد يأخذها إلى الألب ليعلمها التزلج.

الأيام التي تلت كانت اياماً مشغولة لتينا. زارت شقة رالف، امضت يوماً مع امه لتقيس فستان زفاف غير رسمي، وانتقاء بعض القبعات والأحذية، واختارت لها كذلك قفازين نسائيين طويلين وقالت:

- يجب أن ترتديها في الاحتفال، اخشى أن يمر وقت طويل قبل أن تصبح يداك بالنعومة المطلوبة.

ملاحظات كهذه، مع أنها لم تكن وليدة كراهية، كانت تزيد من احساس تينا انها كنبتة برية غزت حديقة رسمية. نبتة مثل «نجمة الصباح» الجميلة الرائعة في بيئتها الأصلية لكنها لا تتناسب مطلقاً مع مسكبة ورود.

مع ذلك، فلو أن رالف قال لها مرة أنه يحبها، لكانت كل شكوكها أقل أهمية.. لكن، لم يتجاهل قولها فقط، بل انه لم يحاول مطلقاً الاختلاء بها كما تحس أن على الخطيب أن يفعل، حين قالت له أحد الأمسيات:

- بالكاد أراك.

ابتسم وأجاب:

- في الأسبوع القادم، سنكون لوحدنا لأربعة أيام بلياليها.

لكنها كانت تحتاج بيأس إلى طمأنينة كلمات الغزل، وتصرفاته كانت متزمتة كتصرفات خطيب منذ خمسين عاماً.

قبل خمسة أيام من الزفاف، رن جرس الهاتف وخرجت مدبرة المنزل من المكتبة لتقول لها ان المخابرة لها.. قائلة أن السيد رومان يطلبها بالاسم. فالتقطت السماعة:

- براد؟ هذه أنا تينا. كيف حالك؟

- أنا بخير.. كيف حالك أنت؟

- بخير.. شكراً لك.. ما هذا التبذير للاتصال بي من أميركا! لا بد أنها تكلف مبلغاً باهظاً؟

- أنا لست في أميركا.. بل هنا.. في باريس. وفي مقهى لا يبعد كثيراً عن مكان اقامتك.. كنت أجلس لاستجمع شجاعتي واتصل بك. لست واثقاً أن يوافق رالف على رؤيتي.. ألا يمكنك الخروج لنصف ساعة.. أيمكن؟

ـ أجل بكل تأكيد.. لكن لماذا لا تأتي إلى هنا؟ رالف ليس هنا الآن لكن ولو كان هنا فأنا واثقة أنه سيسرّ لرؤيتك..

ـ ربما أنت محقة.. لكنني طلبتُ لتوي ما آكله.. لذلك سيكون اللقاء في المقهى مناسباً أكثر لي.. إنه مقهى الوردة الحمراء. على بعد أمتار إلى يسار الشارع الذي تسكنين فيه.

ـ سأحضر بعد خمس دقائق.

كان براد يبتلع آخر لقمة من وجبته حين وصلت. وشاهدها تدفع الباب لتفتحه، فقفز على قدميه ووجهه يتهلل بالسعادة:

ـ لم أعرفك على الفور. لقد تغيرت، قصصت شعرك، ولست معتاداً على رؤيتك وثياب كثيرة على جسدك.

قالت تضحك:

ـ كلامكَ غير لائق.. أوه براد كم أنا سعيدة لرؤيتك. هل استعدت عافيتك تماماً الآن؟

ـ اجل.. ومنذ أمد بعيد.. تبدين مذهلة تينا.

ـ صحيح؟ لا استطيع القول إنني أحس بهذا.. ماذا جاء بك؟

ـ أنت جئت بي إلى هنا. قرأت ما بين سطور رسالتك، وأحسست أنك قد لا تكوني سعيدة. هل كل شيء على ما يرام حقاً؟

ـ اجـ.. اجل.. لا يمكن أن يكون افضل.

ـ كنت أعرف، أن أحد اسباب ابتعادك عني كان رالف. وهناك عدة مناسبات رأيته ينظر إليك، بصراحة، والشوق في عينيه. لكنه لم يبدو لي من النوع المزواج. كنت أظنه من العابثين.

ابتسمت:

ـ وهذا ما ظننته أنا كذلك.. لم أذهل مرة في حياتي كما أذهلني حين قال لي إنه سيتزوجني.

ـ قال لك؟ واثق من نفسه بكل تأكيد. معظم الرجال يسألون الفتاة أولاً.

ـ لقد عرفت أنني أحبه، فما يمنعه من أن يعرف كذلك؟

ـ على أية حال، كنت محقاً في نظرتي إليه أنه مماثل في الثراء مع ليزا هذا الصباح وأنا أتجول حول المنزل لمحته من الداخل، إنه قصر.

ـ ليس منزله، بل لأخيه من أمه الكونت دو بلسان. وأخبرته باختصار ظروف رالف واردفت:

ـ وهذا هو الشيء الوحيد الذي يقلقني.. لست واثقة أنني الزوجة المناسبة لاستاذ في الجامعة للحضارات الحديثة.. وأنا غير متعلمة كثيراً.. في اشياء كثيرة أنا جاهلة كابنة عشر سنوات.

ـ لا تدعي هذا يقلقك، قد لا تعرفين شيئاً عن أوروبا.. لكن كم من الأوروبيين يعرف عن الباستيك أو الكاريبي؟ لم أدرك أن معظم الناس يعيشون في دنيا ضيقة إلى أن عدت إلى لوس أنجيلوس.. والدتي ومعظم صديقاتها يعتقدن أن الدنيا كلها تتركز حول لوس انجيلوس.. على كل حال، الرجال لا يتزوجون كي تغطي عليهم زوجاتهم بذكائهن.. أنت جميلة تينا!.. وأصبحت الآن أكثر جمالاً.

بدا واضحاً لها أن مشاعره نحوها لم تتغير، فغيرت هي الموضوع!

ـ كيف جئت إلى هنا؟ بالطائرة؟

ـ أجل.. لكنني لا استطيع البقاء طويلاً.. حتى الغد فقط.. إنه وقت عمل مكثف في المصنع في مثل هذا الوقت من السنة ولا ينفع ابن صاحب العمل أن يأخذ اجازة طويلة حين يشاء. خاصة ولم يمض عليّ وقت طويل في العمل..

تينا.. ما قلته لك سابقاً لا يزال ساري المفعول.. إذا احتجت يوماً أي نوع من المساعدة، أو أي مكان تلجأين إليه.. تعالي إليّ. أمي تقول لك انها سترحب بك دوماً في منزلنا. فقط اخبرتها كيف اعتنيت بي حين لسعني ذلك القنديل اللعين. لكنني لم أقل لها كم قاربت الموت.

حين افترقا. سارت تينا على مهل إلى المنزل.. تفكر كم أن

الحياة اقل تعقيداً لو أنها كانت تبادل براد عاطفته بدلاً من الوقوع في حب رجل ناجح لامع مثل رالف.

لم تذكر تينا مقابلتها الخاطفة مع براد حين اجتمعت العائلة للعشاء.. ليس لوجود اسباب تجعلها متكتمة.. بل لأن الكونتيسة الكبيرة كانت تسرد قصة فضيحة تتعلق بعائلة يعرفونها، وستكون الفضيحة علنية في الغد. لكنها فيما بعد قالت لرالف:

ـ احزر من اتصل اليوم؟ براد رومان.

ـ حقاً.. وكيف حاله؟

ـ جيد.. ومندهش لخطوبتنا.

ـ صحيح.. اتصور أنه سيدهش.

وحول الحديث عن أشياء اخرى، مبدياً عدم اهتمامه، فتركت الأمر كما هو عليه.

في نهاية الأسبوع ذهبوا إلى القصر الريفي.. وهناك استرقت تينا السمع، دون قصد، على حوار بين رالف وأمه.. حول كل ريبتها إلى وقائع.

كانت تتمشى لوحدها في الحديقة عند المغيب قبل العشاء حين سمعت الأم تقول بالفرنسية، من داخل ظليلة وارفة:

ـ مع ذلك، لست واثقة أن من حقك الاستعجال.. إنها فتاة فاتنة، ولقد أحببتها وكذلك إليان. كلنا في الواقع

احبيناها. لكنها أصغر من نساءك الأخريات، ولا تشبههن.. فهل أنت واثق انك لم تترك غريزتك للحماية تتغلب على تعقلك يا بني؟

ـ أمي العزيزة.. ظننتك تعرفين أن اهتمامي بالنساء لا علاقة له بغريزة الحماية.

وكانت لهجته الأكثر سخرية مما سمعت منه من قبل، فردت أمه:

ـ في الماضي أجل.. لكن تينا مختلفة، حولها نوعية هشة ضعيفة تبدو مثيرة للإعجاب في مثل سنها.. وأظن أنك أنت حتى، لن تستغل بريئة ساذجة بطبيعتها الحلوة.

ـ لكنني لم أشر إلى انني سأستغلها.. أنا سأتزوجها. وقلقك لا مبرر له.. فأنا كبير بما يكفي وأكثر لأعرف ما في نفسي حول هكذا أمور. كما أنني أعرف تينا أكثر منك. وسننجح معاً. أؤكد لك.

ـ لكن هل تحبها؟ حبها لك واضح.. لكن لا يحق لك أن تدعها تتدله في حبك وأنت لا تحس شيئاً نحوها. بل مجرد رغبة عابرة، بعدها ستعود إلى النساء مجدداً.

ـ الرجل الذي ترضيه زوجته لا يحتاج للبحث عن امرأة اخرى. ومن الصعب أن تتوقعي مني أن أكون في هذا السن ولا يكون لي علاقات سابقة.. لكنني طالما أخذت نسائي كما

نسيتهن، كل واحدة في وقت واحد. فإذا تمكنت أن أكون مخلصاً لهن، استطيع القول إنني سأكون مخلصاً لزوجتي.

ـ هذا ما أتمناه.. أتمناه من كل قلبي. فهذه الطفلة حساسة جداً.. وستحتاج إلى الكثير من الحنان، وأنا اتساءل عما إذا كان لديك القدرة على الحنان مع أية امرأة عدا جدتك. لكن واقع تشابه تينا معها، ليس اساساً صالحاً للزواج منها.

ـ بالعكس، شبهها منها أحد الأسباب لتوقعي نجاح زواجنا.

زيارتي للكاريبي صيفاً جزء مهم من حياتي يا أمي.. لكنه ليس الجزء الذي يمكن لي أن أشاركه مع الكثير من الفتيات.. خذي لوس ولودي مثلاً.. قد تمتعنا برحلة قصيرة.. لكن بعد الإبحار لثمانية اسابيع بين الجزر الثانية، ستحسان بالضجر حتى الموت، وتتوقان للتسلية التي توفرها المتجعات.. وكذلك انت.. لكن هذا لا ينطبق على تينا، كذلك يمكنني الاعتماد عليها للتصرف بتعقل عند الحالات الطارئة. وهذه ميزة هامة في الزوجة في ذلك الجزء من العالم.. اهتمي بزواج ابنتيك عزيزتي ولا تقلقي رأسك بزواجي.. اعرف ما افعل.

ردها عليه لم يكن مسموعاً. فقد بدا، اسيران إلى الزاوية الأخرى للحديقة حيث ابتعدا عن مسمع تينا.

واضح، أن لا عاطفة خاصة في نفس رالف نحوها..

مجرد رغبة، واعجاب بقدرتها على سطح مركب.. من الممكن وهي تحبه بهذا القدر أن تتمكن من العيش معه على أفضل حال على أساس هذه الشروط. لكن، لنفترض أنه قادر على حب أصلي، ليس لها بل لامرأة أخرى قد يلتقيها فجأة فيما بعد؟

ولنفترض أنهما، كما اليان وايزابيل، سرعان ما انجبا طفلاً، بعدها وقع رالف في حب آخر؟

التخمينات مؤلمة جداً. ومن الممكن وهي ليست محضرة لكسب عيشها، هذا عدا عن شخص آخر، أن تتخلى ليس فقط عن زواجها بل عن طفلها كذلك، وهي تعرف أنها لن تستطيع هذا اطلاقاً، ولن تستطيع البقاء معه إذا لم يعد يريدها.

بعد العشاء، اعتذرت، وانسحبت إلى غرفتها وقد عقدت العزم: في أول فرصة سانحة لها، ستهرب.

مر عليها وهي مستلقية إلى جانبها حوالى الثلاثة أرباع الساعة كان ظهرها إلى نور القمر الخافت المتسلل من النافذة، وسمعت باب غرفتها ينفتح، على الفور اغمضت عينيها. وقال رالف بصوت خافت:

ـ تينا؟

وسمعته يقترب من السرير:

ـ ما خطبك؟ أصحيح أنك تشعرين بصداع؟

كان يتكلم بصوت منخفض، ولو كانت نائمة حقاً لما

أزعجها.. فيما بعد لم تستطع التفكير لماذا فتحت عينيها وردت عليه:

ـ أنا أفضل حالاً الآن، شكراً لك.

جلس على حافة السرير:

ـ هذا ما اعتقدته. في الواقع حين لم تتمني لي ليلة سعيدة تساءلت لماذا. هل كنت تأملين بأن الحق بك؟

جلست في الفراش تمسك الغطاء لتحجب كتفيها وصدرها العاريين. ففي حالتها الذهنية المشوشة لم تضع عليها ثوب نوم، بل اندست إلى الفراش كما هي.. متأخرة أدركت أن ثقله على الغطاء منعها من جذبه إلى الأعلى ليغطيها بشكل لائق، وردت عليه متلعثمة:

ـ لا.. لا.. أبداً.

بلطف شد بيديها ليقع الغطاء على حجرها. وسمعت تنفسه العميق وهو يرى جسدها الذي لا يغطيه سوى ثوب سباحة، وتمتم بخشونة:

ـ كم انت جميلة.

ثم ترك يديها والتفت يده على ظهرها ليضغطها اليه، بينما يده الأخرى اخذت تمر على ذراعها ثم خصرها. وكان هذا أكثر من إرهاق على قوة ارادتها، لم تكن تتوقعه.. وللحظات مجنونة لم تعد تستطيع مقاومة رعشات السعادة التي أثارتها

مداعباته البارعة. وأخذت ضربات قلبها تتزايد.. ثم همست محتجة:

- لا.. رالف.. لا.. ارجوك.

- لا يزال امامنا يومان فقط للزواج!.. أيجب أن ننتظر؟ وهل الأمر مهم؟ أويدك.. ألا تريديني؟

تاقت لأن ترد بالإيجاب.. نعم.. نعم! وتوتر جسدها بين ذراعيه، بتشوق للاستسلام الذي لا وقت له ولا مكان.. تشوقت لأن تنسى الغد أمام سعادة اليوم.

كانت تعرف أنه حبيب بارع.. ولقد أثبت قدرته على اثارتها إلى أبعد من الاحتمال.. كل ما ينقصه هو الكلمات التي تكمل كمال افعاله، كي يقضي على آخر ذرة مقاومة هشة فيها.

افلتت اهة من حلقها وهو يمسك بكتفيها ليعيدها إلى الوراء ثانية.. لتستند إلى الوسادة..

* * *

- ٦ -

جسداً وروحاً

- لا.. رالف.. لا..

بآخر ذرة من مقاومتها، افلتت منه وتمسكت بالغطاء تخفي نفسها، وأكملت تتوسل:

- ليس بعد.. ليس الليلة.

لو أنه عاد للضغط عليها لأذعنت. فكل عصب من جسدها كان يهتز بشوق غامر لأن تقبل ما يتطلبه عنفه الرجولي من أنثى لا حول لها ولا قوة.. إنه استسلام يخرج منه الغازي والمسلوب منتصران.

في سنوات قادمة، حين أصبحت أكثر خبرة بالحياة، كانت تفكر باعجاب بقدرة على السيطرة على نفسها بقوة لا

www.elromancia.com

تملكها هي. وقال:

ـ حسناً.. سنتظر.. لا فارق لي هذا.

بارتياح، وندم، راقبته يخرج من الغرفة، وكادت تناديه ليعود، لكن تعرف لو عاد فسيعطيها ما يرضيها لكن لن يرضي قلبها.

لأن رالف اعلن الليلة السابقة عن رغبته في العودة إلى باريس باكراً، جاء الجميع إلى الفطار باكراً حتى والدته حيث كانت ايزابيل تحضر القهوة والحليب.

وصل رالف إلى غرفة الفطار الصباحية قبل تينا، وجذب لها كرسياً إلى جانبه حين وصلت.. لكنها أكملت طريقها حول الطاولة لتقبل اليزابيت، وتلقي تحية الصباح على اليان. ثم عادت إلى جانب رالف. وما أن استقرت حتى مال نحوها يقبل رأسها، وكأن شيئاً لم يحدث ليلة أمس.

في طريق العودة، جلست امه قربه في السيارة.. جلوس تينا خلفها اعطاها منظراً رائعاً لجانب وجهه وليديه الدقيقتين فوق المقود. أدارت وجهها لتنظر إلى الخارج مغلقة تفكيرها على ذكرى لمساته ومداعباته.

وهي تودع اليان وزوجته، تعلم أنه ليس وداعاً لثمان واربعين ساعة فقط، بل إلى الأبد، أحست بالقلق العميق. التفكير بالتكاليف والتعب الذي بذلته الكونتيسة لأجلها هو

احراج آخر لها.. لكن ربما، على ضوء حديثها مع ابنها في الحديقة، سترتاح أكثر مما ستنزعج حين يُلغى الزفاف.

ولما كانت تينا تحس بهذا السوء لو أنها تكون صادقة معهم. لو أنها تقول لهم إنها لن تستطيع المضي في هذا. لكن الصراحة هنا مستحيلة.. ورالف سيغض النظر عن قرارها، وسيصر على أن تتزوجه.. رحيلها يجب أن يكون أمراً واقعاً قبل أن يعرف به.

سرعان ما وصلت بهم سيارة الكونتيس الكبيرة إلى باريس وفتحت الأبواب الكبيرة، وتسللت إلى الفناء الداخلي.. كانت تينا تنوي الذهاب فوراً إلى غرفتها، لكن رالف ناداها قائلاً:

ـ كلمة صغيرة معك عزيزتي، قبل ذهابي إلى مواعيدي.

فتح باب صالون صغير، وانتظرها لتمر امامه.

كان هذا لقاء وجهاً إلى وجه كان بامكانها التخلي عن أي شيء لتتجنبه. كيف يشعر رجل يا ترى حين تنبذه خطيبته قبل ثلاثة أيام من موعد الزواج؟

أقفل الباب بهدوء خلفه، لكنه لم يتقدم في الغرفة.. وقال:

ـ أنا آسف لإساءة فهم عذرك للذهاب إلى الفراش باكراً ليلة أمس.

ـ وأنا آسفة أيضاً.. وأتوقع أن تظنني سخيفة.

تقدم منها مبتسماً وقال:

ـ أجل، هذا ما ظننته.. لكن، إذا كان لديك ميل لأن تكوني عروساً قديمة الطراز، وتبقيني بعيداً عنك حتى تصبحي لي قانونياً، بامكاني الانتظار.

وأمسك بذقنها ليطبع قبلة على خدها ثم اكمل بنعومة:

ـ لكنني أظن أنك كنت ستتمتعين أكثر بليلة الزفاف الرسمية لو تركتني ابقى معك ليلة الأمس.

كان هذا أكثر مما تحتمل، وصاح به قلبها: قل أحبك.. أوه قلها رالف: أحبك.. أرجوك!

لكنه قال:

ـ يجب أن أذهب الآن.. فلربما واجهتني إعاقة من زحام السير.. أراك عند المساء.

وهو يستدير قالت:

ـ رالف..

التفت إليها متسائلاً: نعم!

ـ اوه.. لا شيء.. فقط أنا أحبك.

مد يده يداعب شعرها:

ـ وأنا مولع بك يا حلي الصغير.

ثم ذهب.. وتركها متأكدة من تعلقه بها، لكن متأكدة من ناحية أخرى أن تعلقه هذا وحبها القوي له لا يتوازنا مطلقاً،

ولا يصلحا للزواج.

بعد ظهر ذلك اليوم كان لديها آخر قياس للفستان الذي لن تلبسه أبداً. ويد لها لا شائبة فيه، لكنهم أجبروها على الوقوف ربع ساعة لإصلاح اشياء صغيرة إلى أن رضت الكونتيسة.

سألتها الكونتيسة في السيارة:

ـ هناك ظلال سوداء تحت عينيك تينا، ألا تنامين جيداً؟ هل أنت متوترة؟

وكان الأفضل أن تجيب بنعم.

وربتت المرأة على يدها بلطف:

ـ كل العرائس هكذا.. إنها خطوة رهيبة أن تربط الفتاة نفسها مع شخص آخر.. مع أن الرباط هذه الأيام ليس صعباً كما كان.

ذلك المساء عادت لودي من اسبانيا، وكان واضحاً أن رالف يحب كبرى اخواته، وأنها تحبه كذلك.. كانا يتحدثان معاً على الصوفا حين وقفت تينا لتتمنى لهما ليلة سعيدة. فسألتها لودي:

ـ هل استطيع الصعود إلى غرفتك للحديث، ولو لعشر دقائق؟

ردت تينا مع تردد داخلي:

ـ طبعاً إذا رغبت.

فقال رالف:

- لا تبقيها ساهرة كثيراً لودي.. كانت ليلة الأمس مضطربة، وتحتاج للتعويض عن خسارة النوم.

ردت تينا:

- صحيح، فأنا لم أنم جيداً ليلة أمس..

ولن أنام الليلة كذلك.. وقالت لها لودي وهما يصعدان السلم:

- أرى أنك تحبينه جيداً. وهو يحبك.. ويجب أن أقول إنني أحسدك.

لكنك لن تحسديني لو عرفت الحقيقة! وقالت:

- صحيح؟ لماذا؟

- الم يخبرك رالف بأمري؟

- لا.. لم يخبرني بشيء.

- لا.. اعتقد انه لم يفعل.. إنه متحفظ ويحترم خصوصية الآخرين.. كما تعلمين عدت لتوي من اسبانيا.. كنت في حفلة هناك مع من احب، وأحييت منذ سنوات.. لكنه لا يحبني. وعاجلاً أم آجلاً سأفقده لفتاة أخرى.. إنه وضع سيء.. انتظار أن أُنبذ.

اجفلت تينا لثقة الفتاة بها وقالت:

- ربما لن ينبذك.

- اوه.. بلى.. الأمر حتمي.. لكنني لا ألوم سوى نفسي، طبعاً.

لقد احنق بالقول القائل «لا تتسرعي في الزواج» و «حاولي التهرب في البداية» لكن الواقع أن الرجل إذا احبك، يريدك إلى الأبد. وإلا سيكون الأمر مجرد رغبة عابرة. وهذا سيكون رائعاً طالما بقيت الرغبة من الطرفين. لكن أن تحبيه دون أن يحبك...

لست مضطرة لاخباري هذا!

في غرفة النوم جلست لودي تراقب تينا تنزع ماكياجها كما علمتها لوسي أن تفعل.

تابعت الفتاة:

- الأمر غريب.. عادة يقال إنه عالم للرجال. والآن من المفروض أن هناك مساواة. لكنني أحس أن الخطر لا يزال يتحامل علينا، وبشكل أسوأ. أحياناً أحسد جدتي وبناتها.. لم يكن عليهن سوى التفكير بالملابس وانتظار الرجل المناسب.. وما عدا بضع نساء ناجحات في أعمالهن، لست واثقة أن النساء سعيدات هذه الأيام.. كما أن الرجال كانوا أكثر رومانسية من قبل، زهور كل يوم، حلويات، رسائل غرام.. أما الآن، فدخول إلى عمق الأمور من أول لقاء.. آسفة.. ما كان يجب أن أحملك همومي.

للحظات، ساور تينا اغراء بأن تصب على مسامعها كل أحزانها.. منذ التقتا أحست أنها ولودي قد تصبحان صديقتان أكثر من كونها شقيقة زوج. لكن أندفاعها لتسرّ إليها كان مؤقتاً، وودعتها لودي.. وما أن خرجت حتى جلست تينا تكتب رسالتين لرالف ولأمه.

بدأت رسالتها لرالف:

«يا أعز الناس، رالف.

«إني راحلة.. لأنني أعرف أنك لا تحبني حقاً. في وقت استطيع أن اتحمل فيه هذا، لن اتحمل فقدانك لو وقعت في حب امرأة اخرى.. ربما في سنة أو سنتين، يمكن لي أن أجعل من نفسي المرأة التي يمكن أن تقع في حبها. لكنني لاحظت منذ وصولي إلى هنا كم أنا غير ملائمة كزوجة لك.

«ارجوك لا تقلق لأجلي.. ساكون على ما يرام.. وأنا قادرة على إعالة نفسي على المستوى العادي. لكنني بين عائلتك وأصدقائك أجد نفسي غير ملائمة.

«أنا مضطرة لأخذ مال المصروف الذي تركته لي، لكنني ساعيده اليك مع الوقت.. وساعلمك متى استقر، لكن ارجوك، لا تحاول تعقبي. فلا سبيل لأن تغير لي رأيي.

«أنا لا اتوقع ابداً، أن أحب أحداً، بقدر ما أحببتك وأحبك. لكن هذا لا يجعلنا مناسبين لبعضنا.. سأندم دوماً لأنني لم أدعك تبقى معي ليلة أمس، لكن ذلك كان سيصعّب الأمور عليّ أكثر.

شكراً لك على كل شيء.. تينا»

لوالدته كتبت:

«سأتذكر دائماً كم كان استقبالك لي حاراً. مع أنني واثقة أنك عرفت منذ اللحظة الأولى أنني غير مناسبة».

الساعة قرب سريرها ساعة منبهه، حضّرتها لتدق في ساعة مبكرة.. مع أنها لم تنم حتى ساعات الصبح الأولى، حيث غطت في نوم عميق ايقظها الجرس منه.. فجرّت نفسها من السرير لتغتسل، وترتدي ثيابها.. المخاطرة الرئيسية الآن، هي أن تقطع الفناء الداخلي.. لكن فرصة أن يستيقظ الحارس لينظر خارج نافذته في مثل هذه الساعة فرصة ضئيلة.

لم تكن المغادرة امراً سهلاً على نفسها، خاصة أن تتسلل من منزل لم تجد فيه سوى اللطف والرقة.. ووجدت الأبواب ناعمة كذلك المزاليج، لم تصدر أي صرير وهي تفتحها.

وهي تجلس في المترو، الخالي تقريباً، إلا من عمال التنظيفات وآخرين متجهين إلى أعمالهم باكراً، صدمها أن تتذكر بأنها تركت المنزل مفتوحاً أمام كل متطفل. ومع أن هذا أقلقها لدقائق، إلا أنها أدركت أن الفرصة واحد لمليون أن يستغل شخص ما فرصة فتح الأبواب:. فعادت إلى الارتياح.

بما أنها منذ وصولها إلى باريس، استبدل رالف لها أوراقها المؤقتة بجواز سفر أميركي لم تجد أية صعوبة في حجز مقعد لها على أول طائرة إلى نيويورك.. وحالفها الحظ مرة أخرى حين وصلت إلى مطار نيويورك لتجد طائرة جاهزة لتطير بها إلى

لوس انجيلوس، حيث سألت هناك عن محطة الباصات، حيث انتظرت قليلاً إلى أن أقلع الباص متجهاً بها إلى العنوان الذي أعطاه براد لها.

كانت قد فكرت كثيراً ما إذا كان من الملائم أن تقبل عرض براد بالمساعدة، في وقت لا مجال لتغيير مشاعرها نحوه.. لكن وجودها في بلد غريب لها، ولو أنه موطنها، واضطرارها للنوم في فندق رخيص في مكان ما.. كان توقعاً أكثر ارهاباً.

منزل عائلة براد كان كما وصفه تماماً، منزل كبير رائع، تحيط به حديقة ورود، واسم المنزل محفور على لوحة عند المدخل، «رديفر».. موقعه في جوار منازل متشابهة، مفصولة عن بعضها بالحدائق والسياجات الشجرية.

فتحت لها الباب الأمامي امرأة متوسطة العمر، تربط مريلة حول خصرها السمين، وفي يدها منفضة غبار.

- سيدة رومان؟ أنا تينا تايلور.. اظن براد أخبرك عني.

- اوه..أنا لست السيدة رومان يا عزيزتي.. تفضلي ادخلي، وسأقول لها أن هناك من يريد رؤيتها.. ماذا قلت اسمك؟

كررت تينا الاسم. وادخلتها المرأة إلى غرفة جلوس مريحة مشمسة، تطل على منظر للحديقة.. بالمقارنة مع منزل باريس والقصر الريفي بدا لها هذا المنزل صغيراً وحميماً. من بين

الصور الكثيرة التي تظهر أولاد العائلة في مختلف مراحل نموهم كان هناك واحدة لبراد.. وكانت تينا تتفحصها حين انفتح الباب ودخلت امه.

مع أن المرأة التي فتحت الباب ابدت لها الود، إلا أن السيدة رومان لم تفعل. فما أن نظرتا إلى بعضهما، حتى أدركت أن وصولها لم يكن مفاجأة سارة.. وهما تتصافحان قالت المرأة:

- أتمنى لو أنني كنت أعرف بقدومك لسوء الحظ لدي موعد لن أستطيع الغاءه.. جئت إلى هنا مع خطيبك كما اعتقد، أهو معك في السيارة؟

- لا.. جئت لوحدي.. لقد.. فسخت الخطوبة.. وبراد كان قد قال لي إنني إذا احتجت يوماً للمساعدة، يمكنني المجيء إلى هنا و... وهذا ما فعلته.

قبل أن ترد المرأة مبدية اسفها: «اوه.. اوه يا عزيزتي»؟ عرفت تينا أن الرسالة التي ابلغها براد اياها عن أمه، لم يكن المقصود فيها التنفيذ الحرفي. وأكملت المرأة:

- براد ليس هنا اليوم لقد ذهب مع والده في عمل يتعلق بالمصنع. وإلا لاتصلت به ليأتي ويراك.

كانت مختلفة جداً عن والدة رالف، مع أنهما في نفس السن تقريباً.. لم تكن السيدة رومان بأناقة المرأة الأخرى..

دون ماكياج، ثيابها وكأنها اختيرت في أزمنة مختلفة دون العناية بعلاقتها مع بعضها. حقيبتها بلون مختلف عن حذائها، ياقة بلوزتها لم تكن تناسب ياقة سترتها.. حين تأكدت من عدم انسجام الحلى التي تضعها مع بعضها البعض ومع ثيابها كذلك، أدركت كم أن إقامتها مع عائلة رالف قد أثرت عليها في تفاصيل صغيرة كهذه وأبرزت لها اهميتها. وكم أنها تجاوبت بشكل طبيعي مع نظرتهم لتناسق الأشياء والألوان.

وسألتها السيدة:

ـ لماذا فسخت الخطوبة؟ مما قاله لنا براد، بدت لنا زيجة جيدة لك.

ـ أجل.. في أشياء كثيرة.. لكن ليس في أخرى.. قررت أن عليّ أن أتعلم الوقوف على قدمي قبل أن أعتمد على أحد.

ـ فهمت.

لكن بدا عليها أنها بعيدة عن الفهم، بل محتارة وحذرة:

ـ حسناً.. سنناقش هذا فيما بعد.. يجب أن أخرج وإلا سأتأخر. مدبرة المنزل ستعتني بك.. ستبقى حتى الرابعة. وسأعود أنا حوالى الخامسة.

بعد قليل من مغادرة السيدة، دخلت السيدة وايت الغرفة لتسأل تينا ما إذا كانت تود تناول الغداء:

ـ لا بد أنك جائعة.. أيكفيك الحساء واللحم البارد مع السلطة؟

ـ أجل.. شكراً لك. وأنا آسفة لوصولي في وقت غير ملائم.

ـ اوه، ليس الوقت غير مناسب عزيزتي.. ما عدا أن السيدة مضطرة للخروج. اعتقد أنك الشابة التي قال السيد براد أنه التقاك في رحلته.

ـ اجل.. التقينا في الكاريبي.

وهي تتناول الغداء في غرفة الطعام، عرفت أن السيدة وايت تساعد السيدة رومان في المنزل منذ كان براد طفلاً. وكانت المرأة ثرثارة وفضولية، وأحست تينا أن من الحكمة أن تحذر قبل أن تتجاوب. حين انهت الطعام عادت إلى غرفة الجلوس بينما انشغلت السيدة وايت بكوي الثياب.

وأحست تينا بالراحة لخلوها إلى نفسها ثانية. لكن بعد نصف ساعة، اضطربت فترة هدؤها برنين جرس الباب.. وسمعت السيدة وايت ترد عليه، ثم صوت انثوي.. وفتح باب غرفة الجلوس لتدخل فتاة لا تكبر تينا بكثير وتقول:

ـ أنا سوزان براود.. من المنزل المجاور.. جئت لأكلم السيدة رومان.. ونسيت أنها تخرج يوم الاثنين بعد الظهر. وقالت لي السيدة وايت أنك هنا واقترحت أن أتحدث إليك.

- كيف حالك؟ أنا تينا تايلور.

- أجل.. اعرف.. أخبرني براد الكثير عنك.. وعن رالف وبيبي وكل المغامرات التي قام بها معكم.

لم يمر وقت طويل من الحديث، حين أحست تينا بقوة أن سوزان تحب براد، ولو أنه لا يعلم.. إنهما يعرفان بعضهما منذ الطفولة.. سوزان كانت تعمل سكرتيرة، لكنها منذ وفاة أمها قبل ستة أشهر تركت العمل لتعتني بمنزل أبيها.

- أفضل العمل في المنزل عن العمل كسكرتيرة.. لكنني أحس أنني شخصية عادية بالمقارنة معك. فأنا لم أفعل أي شيء مفيد من قبل، ولم أسافر إلى أي مكان.

- وأنا كذلك.. وأكبر مغامرة لي في حياتي كانت المجيء إلى باريس، ثم السفر إلى هنا.

لم يكن في تصرف سوزان أي ضغينة.. ربما لأنها لا تعرف بأن الرجل الذي تحبه يعتقد نفسه بأنه يحب تينا.. لكنها الفتاة التي تناسبه.. إنهما ملائمان تماماً لبعضهما وتمنت لو أنها لم تأت إلى هنا، بل بقيت في نيويورك، كي لا تزعج السيدة رومان، ولتؤخر اللحظة التي سيعرف فيها براد أن من تناسبه هي من تسكن إلى جواره، وليس من التقى بها صدفة في رحلة تجواله.

كانت على وشك أن تسأل سوزان اين تقع أقرب محطة

باصات لتعود إلى المدينة حين دق جرس الباب مرة أخرى.. صوت الطارق هذه المرة كان صوت رجل. ومع انهما لم تسمعاه بوضوح.. إلا أن شيئاً فيه جعل تينا تشهق بأنفاس مضطربة.. فسألتها سوزان:

- ماذا بك؟

- ظننت.. لكن لا.. لا يمكن هذا.

أدخلت السيدة وايت رأسها من الباب:

- هناك سيد يسأل عنك آنسة تايلور.

لم تكن مضطرة أن تسأل «من هو»؟ لا يمكن أن يكون سوى رجل واحد.. وحضرت نفسها لاستقبال غضبه.

لكن، ورالف يدخل الغرفة، لم يدخلها بغضب، ولم يتقدم نحوها بغضب، حين وقفت وضع يداه على كتفيها.. وبغض النظر عن وجود السيدة وايت وسوزان قال لها:

- إلى ان استلمت رسالتك، لم أكن أعرف كم أحبك... معرفتي بسفرك كانت تماثل سماعي خبر موت جدتي.. لكن أسوأ بكثير.. مئات المرات أسوأ. كان تعني لي الكثير.. لكن ليس كل شيء.. بدونك.. هل فقدتك لأنني لم أدرك سريعاً أنك كل شيء في حياتي؟

- أوه.. رالف.. لن تفقدني أبداً.. ليس وأنت فعلاً تريدني.

اختطفها إلى ما بين ذراعيه.. لا ليفعل شيئاً سوى احتضانها إلى قلبه.. من بعيد سمعت سوزان تقول:

- أظن من الأفضل تركهما معاً في خلوة سيدة وايت.

.وتمتمت تينا تسأله بعد مضي وقت لا بأس به:

- كيف عرفت أين أنا؟

- لم أكن أعرف.. لكنني كنت آمل أن تكوني هنا.. ولو لم أجدك.. التفكير بأن تكوني لوحدك في نيويورك أو هنا.. دون أن يعتني بك أحد.. جعلني أمضي فترة رهيبة. لأنني لن أستطيع أن أجدك في مدينة كبيرة.

- وكيف وصلت بسرعة؟

- باستئجاري طائرة خاصة، أوصلتني في ربع المدة للطائرة العادية.. وبنفس الخط سنعود على نفس ا لطائرة.. ما هي الأوضاع هنا؟ من هي الفتاة التي كانت معك حين دخلت؟ أهي شقيقة براد؟

- لا.. إنها جارة له.. وهو مع والده في المدينة اليوم وأمه التي التقيتها لوقت قصير، لن تعود قبل الخامسة.

تركها لينظر إلى ساعته:

- أيجب أن ننتظر إلى أن تعود؟ إذا غادرنا الآن يمكن أن نكون في طريقنا إلى فرنسا قبل الخامسة.

- يمكن أن أكتب لها رسالة أشرح لها الموقف..

- افعلي هذا.. يا حبي.

وهكذا كتبت تينا رسالة اعتذار وشرح، وقالت أن خطيبها لحق بها وأقنعها بالعودة معه فوراً، كي لا يتأخر موعد زفافهما عما هو مقرر. وهي توقع الرسالة كان لديها احساس أن السيدة رومان لن تذكر حضورها أمام زوجها أو ابنها، وأنها ستحث السيدة وايت وسوزان أن لا يذكرا شيئاً كذلك.

أمل رالف بالعودة سريعاً لم يكتمل، فقد طرأ تأخير على موعد السماح للطائرة المستأجرة بالإقلاع.. وهكذا كان الاقلاع في وقت متأخر من اليوم الطقس الخريفي كان قد تبدل وأصبح ممطراً، وطوال الرحلة كانت الطائرة تهتز وتعلو وتهبط. وجلسا معاً، جنباً إلى جنب في زاوية معزولة يشربان القهوة، وبالكاد يلاحظان الطيران السيء وقال لها رالف:

- اعتقد أنني بدأت أحس أن مشاعري نحوك مختلفة ليلة توقفنا في نيويورك.. سام كان قد استنتج أن علاقتنا ستكون عابرة. لكنني اكتشفت أنني لم أتقبل بأن يفكر بك كفتاة من هذا النوع.

- لكنني.. كنت مستعدة أن أكون لك.

- لكن لأجل الحب.. وليس للمرح أو للمال أو لأي سبب آخر تقبل فيه الفتاة العلاقة مع رجل. كنت تحبيني.. وعرفت هذا. وما لم أعرفه حتى صباح اليوم هو أنني أحبك

أيضاً.. أو ربما كنت أعرف هذا منذ البداية.. لكنني لم أرد أن أعترف بأنني مستعد لتلقي صدمة أخرى.

ـ مرة أخرى رالف؟

ـ حين كنت صغيراً ظننت أن أمي كاملة. لم أكن اهتم بزوجها. وعرفت أنه لا يهتم بي.. في ذلك الوقت لم أكن أفهم أنني أذكره دائماً بأنه خسر حبيبته أمام أبي، وهذا واقع تحول إلى غيرة عنيفة.. في يوم، سمعت أمي تقول له إنها لم تكن سعيدة في زواجها الأول وانني لا أعني شيئاً بالمقارنة معه.. وكنت أظنها تحبني بقدر ما أحبها. وتلقيت صدمة قاسية، مما دفعني أن لا أسمح لامرأة أن يكون لها تلك السلطة عليّ ثانية.

ـ لكنني واثقة أن أمك لم تكن تعني هذا. كان ذلك مجرد محاولة لتخفيف غيرة زوجها منك.

ـ ربما.. لكن الأمر وضع حاجزاً ضخماً بيننا ولا يزال هناك. وبالتدريج أخذت جدتي مكان أمي، وبعد موتها لم أكن أتصور أبداً أنني سأشعر بأي عاطفة لامرأة ثالثة. وكم كنت مخطئاً!

ـ سمعت حديثاً بينك وبين أمك في حديقة القصر الريفي، دفعتني للقرار بالرحيل.. وجعلتني أقاومك ليلة دخلت غرفتي.

ـ اذكر أنني تحدثت إليها.. لكن لا أذكر ما قيل كثيراً.

ـ الأهم لي كان ما لم يقال.. لقد سألتك بصراحة ما إذا كنت تحبني، ولم ترد عليها.. بل راوغت في الرد.

ـ حتى ولو كنت أعرف أنني أحبك، بوعي أو بغير وعي، ما تمكنت من قول هذا لها، أو لأي إنسان سواك، صحيح أنني نصف فرنسي لكنني تربيت في أميركا ولست معتاداً على إظهار عواطفي كيفما اتفق. الحب شيء من الأفضل التعبير عنه بالاعمال وليس بالكلمات. وكما سأظهر لك فيما بعد.. حين نكون لوحدنا.. لكن بكل تأكيد كنا نتحدث بالفرنسية؟

ـ أجل.. لكنني أفهمها جيداً. ولم أذكر هذا، لأن لوسي ذكرت يوماً شيئاً عن من تدعى لورا.. ولو عرفت أنني أفهمها لأحست بالإحراج.

ـ هكذا إذن.. ماذا قالت عن لورا؟

ـ انك يومها لم تعد للغداء كي تودعها.. لكن هذا لم يزعجني ولا يهمني كم عدد النساء في حياتك طالما لا يكون هناك أحد غيري في مستقبلك.

ـ لن يكون.. تأكدي من هذا، بالرغم من الانطباع الذي تحمليه عني.

ـ لكن ملاحظتك التي قلتها ليبي يوماً عن مكان المرأة.. تدل على هذا.

- لكن بيبي كان من أوحى لي بهذا ألا تذكري..

حين حطت بهما الطائرة في المطار وخرجا إلى سيارة أجرة، قال لها:

- من الأفضل أن اتصل بالعائلة لأقول لهم إنني سأجيء بك معي وأن موعد الزفاف سيبقى كما هو.

كانت السماء تمطر بغزارة حين طلب ايقاف السيارة أمام كشك للهاتف واسرع بالخروج.. بعدها بقليل عاد، لتنطلق بهم السيارة مرة أخرى نحو باريس وقال لها:

- المطر شديد، ولن نستطيع الوصول بسرعة، وأنا جائع.. إذا كان لا بأس معك سنتوقف في فندق لنرتاح ونأكل ثم نتابع رحلتنا.

- لم لا.. أنا أشعر بالجوع كذلك!

أمسك بيدها، ليعض اصابعها:

- للطعام أم للحب.

في تلك اللحظة كانت السيارة عند مفترق طرق، وهما بانتظار الإشارة، كانت تحس به ينظر إليها على ضوء السيارات القادمة نحوهما، وكان ردها ابتسامة، فقد ظنته يمازحها.

حبه لها، لم يعد موضع شك لديها.. في صمت الليل، حين كان كل شيء من حولهما صامتاً، تمتم لها بأشياء، وضعته تحت سيطرتها بقدر ما هي تحت سيطرته.

وضعت رأسها على كتفه والتفت ذراعه القوية حولها، بعد نصف ساعة كانا على مائدة الفندق، يتناولان الفطار، لأن الوقت كان قد قارب الفجر: خبز لا يزال ساخناً من الفرن مع الزبدة ومربى الكرز.. بعدها دفع رالف الفاتورة، ليتوجها إلى حيث سيرتبطا جسداً وروحاً في أول يوم لزفافهما.

* * *